

كريستا فولف

ترجمة :

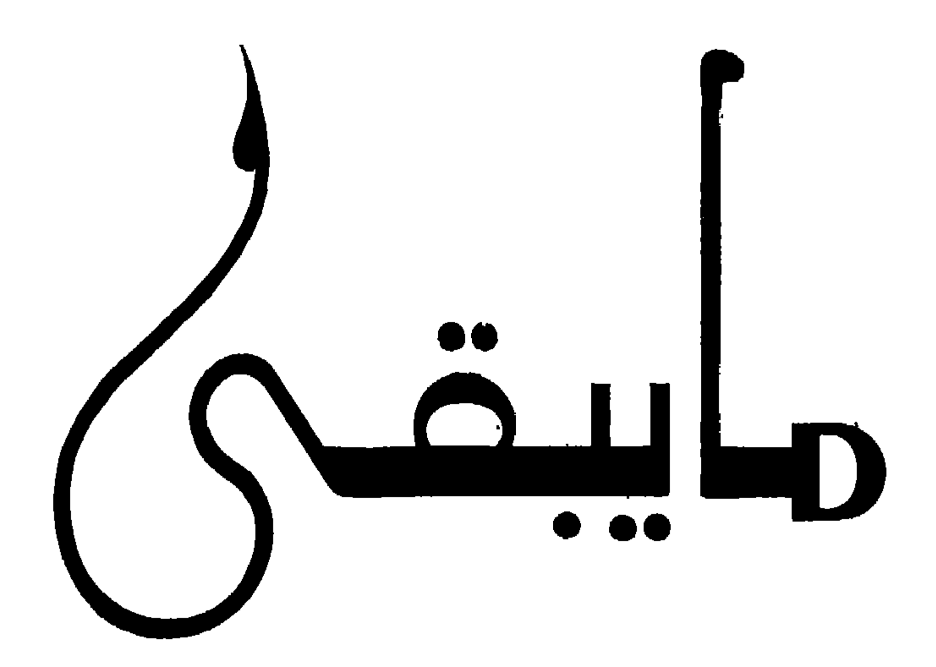
بسام حجّار

مايبقى




ما يبقى

كريستا ڤولف



ترجمة :

بسام حجّار



سلسلة روايات من العالم/ ٥

الرواية ما يبقى

التأليف كريستا ڤولف

الترجمة بسام حجار

الناشر دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ص.ب: ٣١٨١/١١ ـ ت: ٣٠٥٥٢٠

التنضيد شركة المطبوعات اللبنانية ش.م.ل.

تصميم الغلاف نجاح طاهر

كريستا ڤولف

نحو أدب الذات

كريستا ڤولف (١٩٢٩ -)، كاتبة من المانيا الشرقيّة، تُعتبر اليوم، إلى جانب.كريستوف هاين وستيفان هايم وغونتر غراس، أحد أبرز الوجوه الأدبيّة للغّة الألمانية وثقافتها لفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. انتسبت إلى الحزب الشيوعي الألماني عام ١٩٤٩، ولم تلبث أن أصبحت من روّاد «تيّار الأدب الجديد» الذي قام على ثوابت العداء للنازيّة وما مثّلته في المجتمع الألماني وتراثه. وظلّت كريستا ڤولف طوال أربعين عاماً تنمّي ولعها بما سمّته «أدب الذات» الذي يستلهم قيم احترام الفرد وتفتّحه الذاتي في ظلّ الحلم بالحرية وبالعدالة الاجتماعية. ولذلك كانت كريستا ڤولف تلتزم في رواياتها إبراز هذا الجانب الانساني في معاناة من يحلمون بالبناء، من يجعلون «اليوتوبيا» جزءاً من عيشهم وسعيهم، وكانت إلى جانب ما مثلته من قيم ثقافية ومعنوية ألهمت أجيالاً من الكتاب، تشكّل نوعاً من «الوعي النقدي» الحاد الذي لا يرى إلى القضايا السياسيّة، مهما كانت، إلاّ من زاوية الالتزام بالحريّات الديمقراطية وعدم الارتهان للجمود والتسلّط والقمع، حتّى جعلت من هذه القضايا محور صراعها الدائم ضدّ المتصلبين في

كـافة الوظائف الرسميّة والمراتب الحزبيّة التي تبوّأتهـا. وكانت البداية في بروز هذا الصـراع إلى العلن، عام ١٩٧٢، على أثـر صدور روايتهـا «كريستا ت.» حين اتّهمتهـا الهيئـات الثقافيـة الرسمية والحزبية بأنّها استبدلت ماركس بفرويد وبأنّهـا انتهكـت قيم الواقعية الاشتراكيّة بإبرازهـا لقيم «الفرديّة»، مُرتكز الفكر البورجوازي وروايته. وعلى الأثر، نصحهـا ناشر كتبها بالتوقّف عـن الكتابـة. وفي عام ١٩٧٦ وقّعت كريستا ڤولف إلى جانب أحـد عشر كاتباً من ألمانيـا الشرقية، عريضـة احتجـاج ضدّ قرار الحكـومة إبعاد المغنّي الشعبي ڤولف بيرمـان بسبب الانتقـادات اللاذعة التي يروّجها عبر أغانيـه والتي تطول مباشرة إلى «المـراتب البيروقراطية الجامدة» في الدولة والحزب. وبعـد ذلك تؤكد احتجاجهـا بالاستقالة من «اتحاد الكتـاب الألمان» الذي غادرته بعد ٢١ عاماً من العضوية الناشطة والفعّالة. وفي عام ١٩٧٩ تتعرّض كـريستا ڤولف للصدمـة الحاسمة حين تكتشف بمحض المصادفة أنّها وضعت تحت المراقبة المشدّدة وأن عناصر الشرطـة السياسيّة السريّة (ستازي) تتولّى مراقبتهـا وتعقّبها في تحركاتها كما زرعت أجهـزة تنصّت في أماكن مختـلفة من بيتها، بالإضافـة إلى تعرّض هذا البيت إلى عمليّات تفتيش منظّمـة في غياب ساكنيه. فتكتب كريستا ڤولف «ما يبقـى» في صيف عـام ١٩٧٩، ولكنّها تمتنع عن نشره آنذاك، ولن يصدر إلاّ عـام ١٩٩٠ (لطبعتيه الألمانية والفرنسيّة) بعد عـام واحد على سقوط جدار برلين وقبل أسابيع قـليلة من إعـلان إعادة توحيد الألمانيتين، ومن اعتزالها العمل السياسي وانسحابهـا من صفوف الحزب. وفي العام نفسه تنشر روايتها «مشاهد صيفية» حيث تروي، على لسان الـراوي المتعدّد، عودة مجموعـة من الأصـدقاء إلى الريف بعد أن عزموا على قطع صلاتهم بالمدينة وبماضيهم والأوهام

التي اكتنفت عيشهم خلال السنوات الطويلة المنصرمة.

* *

لكريستا ڤولف عدد من الأعمال الروائية والقصصية لم يُنقل أيٌّ منها، فيما نعلم، إلى العربية. ومن بينها نذكر: «السماء المقسّمة» (١٩٦٤)، «كريستا ت.» (١٩٧٢)، «نسيج طفولة» (١٩٨٧)، «لا جهة،لا مكان» (١٩٨٥)، «كاساندرا» (١٩٨٥)، «حادثة طفيفة، قصص يوم واحد» (١٩٨٩)، «ثلاث قصص غير معقولة» (١٩٨٧)، وأخيراً «ما يبقى» (١٩٩٠) و«مشاهد صيفية» (١٩٩٠).

* * * *

«ما يبقى»، كتاب أرادته كريستا ڤولف أقرب إلى اليوميّات الحميمة التي تروي أحداث يومٍ واحد من حياة الكاتبة على أثر اكتشافها بأنّ عناصر الشرطة السياسية تراقبها. يوم واحد من التداعيات والوساوس والأحاديث والإحساس العميق والقاتل بالعزلة. بل يوم واحد من العيش المكشوف، المعرّض في كل ثانية لأعين الآخرين ونظراتهم الكابية. وتحاول كريستا ڤولف في كتابها هذا أن تروي انهيار الوهم، والدمار العقلي الذي يخلّفه في أعماق الذات. «ما يبقى» لغة متّصلة في حوار وحيد وإن كان هذه لا يني ينبثقُ من أعماق متألمة ومُحبطة، أو يسترسل سعياً وراء الصلة بالآخرين. صلة تنقطع، لاتني تنقطع، كلّما اقتربت من السؤال: «ما الذي يبقى؟. - ما يبقى».

يوميّات. بل اعترافات الكاتب الذي ينتظر، حيال عجز لغته،

اكتمال لغة جديدة، يذكرها مستهلّ الكتاب لكنّه يجهل كنهها. لغة تدفع الإحساس بالغربة عن المدينة وعن الناس وعن الأبناء، وترفع شقاء أن تحيا وشقاء أن تدرك، بعد أن تحيا، أنّك لم تعِش.

المترجم

لا تخافي. فذات يوم سأتكلّم أيضاً بتلك اللغة التي تضجّ في أذني. وليست بَعْدُ على شفتيّ. أمّا اليوم، كنتُ أعلم من قبل، أنّ أوانها ما كان ليحين بعد. ولكنْ أتراني أحسّ بأوانها لّما يجيء؟ تراني أهتدي أبداً إلى لغتي؟ ذات يوم سأصبح عجوزاً. فكيف يكون لي عندها أن أتذكر تلك الأيام؟ لقد قبض الذعر فيّ شيئاً ينبسط في أوقات الفرح. منذ متى لم أشعر بالفرح؟ ليس هذا ما كنتُ أودّ أن أعرفه آنذاك. فما وددتُ أن أعرفه - في صبيحة ذلك اليوم البارد الداكن من آذار، إذ لم يكن الوقت مبكراً جداً - هو كيف سأرى، بعد عشرةٍ أو عشرين عاماً، إلى ذلك اليوم الذي كان جديداً بَعْدُ وغير مُعاش. مذعورة كأنّ جرساً يدقّ فيّ ناقوس الخطر، قفزتُ من سريري ووجدْتُني حافية القدمين على سجادة الصالة ذات الرسوم الجميلة، ورأيتني أرفع الستارة بحركة مباغتة وأفتح النافذة المطلّة على الفناء الخلفي المزدحم بصناديق القمامة الطافحة والأنقاض، والمقفر برغم ذلك كأنّه مهجور إلى الأبد، إذ هجره الأولاد بدرّاجاتهم وأجهزتهم الترانزستور، وهجره السمكريون وعمّال البناء، وحتّى السيّدة ج. بمئزرها وطاقيّتها الصوف التي ستنزل فيها بعد لجمع علب الكرتون، مخلّفات متجر الحبوب

ومتجر العطور والمخازن العموميّة من المستوعبات الكبيرة المسيّجة، فتملّسها وتجعل منها رزماً يَسْهُلُ حملها وتنقلها في عربة يد لتبيعها من بائعي المفرّق عند ناصية الشارع. وسيُسمع في الأنحاء زعيقها احتجاجاً على سكان العمارة الذين، لتقاعسهم، يرمون الزجاجات الفارغة في صناديق القمامة بدل أن تجمع بعناية في الصناديق المخصّصة لها، وبَرَماً بأولئك الذين يعودون إلى منازلهم في ساعات متأخّرة من الليل ويفتحون بوّابة المدخل عنوةً كلّ ليلة تقريباً لأنّهم غالباً ما ينسون مفاتيحهم، وبهيئة الإشراف البلدي للعمارة التي لم تقدر أن تثبّت جرساً كهربائياً عند المدخل، وعلى الأخصّ ضيقها بأولئك الرعاع السكارى مدمني الشراب في الفندق ـ المطعم المجاور والذين اعتادوا على التبوّل خلف الباب المخلوع.

الحِيَل الصغيرة التي كنتُ أجيزها لنفسي كلَّ صباح: أن أرفع عدداً من الصحف لأضعها في المكان المخصّص لها، أن أملّس على عجل مفارش الطاولات، أن أوضّب الكؤوس وأدندن لحن أغنية («مُستحيل، قال الحكماء، ضعفُ الإثنين أبداً لا يكون ثلاثة»)، ويقيني أنّ كلّ ما أصنعه ليس أكثر من خداع لنفسي، فقد كنتُ في الحقيقة أسير، كأنّني مشدودة بخيط، نحو الغرفة المواجهة، نحو النافذة الكبيرة ذات الخرجة التي تطلّ على شارع فريدر شتراس والتي لا تدخل منها شمس الصباح بالطبع، لأنّ شمس الربيع كانت شحيحة، بل، في الأقلّ، النور الصباحي الذي أحبّ والذي كنت أودّ لو أخزّن بعضاً منه لأغتذي به في الأيام المُعتمة.

غير أني أعلم جيداً أنّ الكنز السماوي الذي يغزر في متناول اليد لا يُعطى لمجرّد أن تشاء الارادة. وأعلم جيّداً: كلّ غذاء يفوق حاجة

الجسد يُعطى لنا بسهولة ودون أن يكون علينا أن نلمّ نثاره فلذةً بعد فلذة أو حتّى أن يكون حقّاً لنا، إذ يلتمّ من تلقائه، وأخشى ما كنتُ أخشاه بالفعل ألاّ تكون أيّام القنوط كلّها سبباً في ديمومة هذا الزاد فتغور إلى غير رجعة في سيل النسيان المتدفّق. وإذ شلّني الخوف، خوف أشبه بالهلع، بتّ أسعى للتشبُّث بأحد تلك الأيام المرصودة للعدم، لأستبقيه، لا ألتفت لما قد أغتنمه منه وسيّان عندي إن كان عاديّاً في ابتذاله أو كان محمّلاً بالتبعات، وسيّان إن أسلم لي قياده على الفور أو أمعن في جماحه حتّى النهاية. كنتُ أقفُ هناك إذن، دأبي كلّ صباح، خلف الستائر الموصليّة التي عُلِّقت منذ وقتٍ غير بعيد لكي يُتاح لي أن أختبىء خلفها، وكنتُ أنظرُ في اتجاه موقف السيّارات في الناحية الثانية من شارع فريدرشتراس، مؤمّلةً بأن لا يراني أحد.

وبأية حال لم يكونوا هناك. فإذا صدقت عيناي ـ وبالطبع بعد أن وضعت نظّارتي ـ فإن كلّ السيّارات المركونة في الصف الأوّل، وكذلك الأمر في الصفّ الثاني، كانت خالية. في البداية، أقصدُ منذ عامين حين بدأ كلُّ هذا وحين بدأت أقيس الوقت بدءاً بتلك البداية، كانت تخدعني مساند الرأس في المقاعد الأماميّة لبعض السيّارات، كنتُ أحسب أنّها رؤوس أشخاص فأراقبها بقلقٍ وذهولٍ لما تبدو عليه من ثبات. وما جاوزت تلك المرحلة إلاّ بعدوقت، إلاّ أنّ هذا لم يعصمني من الخطأ في بعض الأحيان. رؤوس البشر لها أشكال غير منتظمة وتتحرّك، أمّا مساند الرأس فهي متشابهة ومدوّرة وجامدة ـ فرقٌ شاسع قد أتوصّل ذات يوم إلى وصفه بدقّة بلغتي الجديدة التي ستكون أشدّ قسوة من تلك التي ما زلتُ بلا ريبٍ أفكّر بها. بأيّ قدر من العناد يحافظ الصوت على نبرته ما أن يجد سوّيته فيها وكم يُبذل من جهود لكي تتبدّل مهما كانت الفروقات طفيفة. هذا إذا أغفلنا

التطرّق إلى الكلمات، فكّرتُ لحظة دخولي للاستحمام - الكلمات المتلهّفة التي تتزاحم للانطلاق ما أن أفتح فمي، الكلمات المحقونة بالقناعات والأفكار المسبقة والادعاء والغضب والاحباط والإشفاق على الذات.

ولكن أودّ أن أعرف لماذا مكثوا البارحة حتّى ما بعد منتصف الليل ولماذا ما عادوا هنا هذا الصباح.

غسلتُ أسناني وسرّحت شعري، واستعملتُ، بلا وعي مني ولكنْ بعناية، أنواعاً مختلفة من رشاش الشعر وارتديت الملابس التي كنت أرتديها بالأمس، بنطالاً وكنزة خفيفة، فأنا لا أتوقّع مجيء أحد وسيكون بوسعي أن أمكث بمفردي، فبدا لي أن هذا أفضل ما أتوقّعه لبقية النهار. ومرّة ثانية لم أتمالك نفسي من أن أهرع في اتجاه النافذة لأجد، مرّة أخرى، أنّ لا أحد هناك. وبالطبع شعرت بارتياح، قلتُ في سرّي، أم تراني أزعم أنني كنتُ في انتظارهم؟ قد أكون تصرّفتُ بخفّة مساء أمس، ولا بدّ أن أشعر بالضيق ذات اليوم لمجرّد أن أرى نفسي متلمّسةً طريقي وسط الحجرة المظلمة، كلّ نصف ساعة، لأقف خلف النافذة وأراقب من فُتحةٍ بين الستائر. أمرٌ مزعج، أعرف ذلك. ولكنْ لأيّ غرض مكث ثلاثة رجال في اعمار فتيّة لساعات طويلة في سيّارة ڤارتبورغ بيضاء مركونة قبالة نافذة بيتنا.

علامة استفهام. فقلتُ في سرّي، علينا، في مستقبل الأيّام أن نرى إلى علامات الوقف بمزيدٍ من الاهتمام. وعلى الأخصّ: أن نعنى أكثر فأكثر بالاصطلاحات التافهة. في السابق كنت تفلحين في ذلك. متى؟ حين كانت الجُمَل تحمل في أواخرها عدداً من علامات التعجّب يفوق عدد علامات الاستفهام؟ سوى أنني هذه المرّة لن ألجأ كالعادة

إلى عملية اتهام ذاتي بسيطة. سخّنتُ ماءً. فلندع إذن فعل الندامة للكاثوليك. وكذلك «الأبانا». فلا غفران يُرتجى. بيضاء، لمَ هي بيضاء بالذات في الآونة الأخيرة؟ لم ليست كما في الأسابيع المنصرمة، حمراء جارحة أو زرقاء كامدة؟ كما لو أنّ للألوان معنىً ما، أو لاختلاف نوع السيّارة. كما لو أنّ الخطّة المُحكمة ـ التي تصطفُّ السيّارات بموجبها في المواضع المختلفة التي تحتلها في الصفّ الأول أو الثاني من الموقف ـ تواصل سعيها لتحقيق غرضٍ سرّي لا أقدر أن أكتشفه بجهدٍ مثابر. أو كأنّ هذا يستحقّ عناء أن أتساءل عمّا من أمور حياتنا قد يثير اهتمام ركّاب هذه السيّارة ـ رجلان فتيّان أو ثلاثة في ثياب مدنية، أشدّاء قادرون على العمل، ولا شاغل لهم سوى المكوث جالسين في سيّارتهم وعيونهم مثبتة على نافذتنا.

القهوة يجب أن تكون قويّة وحارقة، مُصفّاة، والبيضة ليست رخوة جداً، والمربّى من صنعٍ منزلي إن أمكن، خبز أسمر. ترف! ترف! خطر لي، دأبي كلّ صباحٍ، حين أرى كلّ هذا على الطاولة ـ إحساس بالذنب لا يهون أبداً، ويمتزجُ لدينا نحن الذين نكابد الشحّ، بكلّ لذّة من ملذّاتنا بل ويضاعفها. كنتُ لا أصغي إلى نشرة الأنباء من الاذاعة الغربية (أزمة الطاقة، موجة اعدامات في إيران، اتفاق حول الحدّ من الأسلحة الاستراتيجية: موضوعات من الماضي!) إلّا بأذن وحيدة، وكانت نظراتي تُصادفُ الدرباز المحكم على باب المدخل الثاني لشقّتنا ـ ذلك الباب الذي منه يُفضي المطبخ عبر سلّم الخدم إلى الفناء. وتذكّرت أنّ هذا السلّم غير المستعمل، الضيق والوسخ والذي يزدحم بقطع الأثاث القديمة، كان في حلمي، تلك الليلة، نظيفاً وملمّعاً ويعجّ بأعداد كبيرة من الناس، شعب كامل بتململه ولامراعاته كنتُ، في حلمي، أراه رعاعاً ـ وهي الصفة التي ما كنت

لأجـرؤ على استخدامها أبداً على مسمـع أولئك السادة الصناديد الرشيقين: الشبحيـين الذين في استمرائهم للخزي ـ وهذا أخشى ما أخشاه ـ اقتحموا باب مطبخنا المنيع عنوة وراحوا يتدافعون على العتبة ملتصقين بالدرباز المنيع في صلابته والذي يحظى، لمزيدٍ من الغرابة، باحترام أولئك البائسين الذين كان في استطاعتهم، برغم ذلك، أن يعبروا بسهولةٍ من تحته بدل أن يرموا بأنفسهم عليه، فيما أخيلة جديدة ـ كأنّها، بالفعل، أخيلة من الكرتون ومسطحة ـ تتدفّق من شدق جحيمي لا أراه، ولاتني تتدافع وتتزاحم من الخلف، مفرطة في الخفّة والثرثرة. ولكنْ ما الذي كانت تقوله بالضبط؟ أن لا حاجة لأن نزعج أنفسنا. وأنه ينبغي أن نتصرّف كأنّها غير موجودة. والأفضل أن ننسى وجودها تماماً. ولم يكن في كلامهم أي نبرة استهزاء، وكانوا يتحدّثون بجدّ ولعلّ هذا أشدّ ما كان يكدّرني في حلمي. ولأنّ لا أحد يقدر أن يمتنع عن الحلم أو أن يلوم نفسه بشأنه، رحت أقهقه ضاحكة لأبرهن لنفسي أنني في الحقيقة أقوى من كل هذا. فكانت ضحكة مصطنعة.

لا تخافي. لغتي الأخرى، قلتُ في سرّي، إذ أواصل السعي لخداع نفسي فيما أضع الأواني المتسخة في المجلى وأرتب سريري، ثمّ أعود إلى الغرفة المواجهة لأجلس أخيراً خلف طاولة المكتب ـ لغتي الجديدة، تلك التي بدأت تنمو في داخلي ولكنها لم تبلغ بعدُ ذروة اختمارها، ستستبدل بهدوء المرئيّ بغير المرئي. وستكفّ عن وصف الأشياء استناداً إلى مظهرها ـ سيارات حمراء فاقعة، بيضاء، بحقّ ربّ السماء! ـ وستفسح في المجال رويداً لأن يظهر الجوهر غير المرئي. ستكون لغة تزخر بالحيوية أو هذا ما كنتُ استشعره في اعتقادي، لغة زاخرة بالمراعاة والرّقة. لن تؤذي أحداً، أو لن تؤذي أحداً سواي. إذ بدأت أدرك لماذا لم يكن بوسعي أن أبلغ ما هو أبعد من هذه الأوراق

المحبّرة، أبعد من هذه العبارات اليتيمة والقليلة. فقد كنتُ أزعم التأمل فيها. وفي الحقيقة كنتُ لا أفكرّ في شيء.

مُجدداً كانوا هناك.

كانت الساعة التاسعة وخمس دقائق. ومنذ ثلاث دقائق فقط كانوا مجدّداً هناك، ولم ألبث أن لاحظت وجودهم. انتابتني رعدة في أعماقي، انحراف عقرب يواصل ارتجاجه فوق ميناء عدّاد. وبنظرة خاطفة، ملحوظة بالكاد، ثبُتَ لي ما رأيت. كان لون السيّارة هذه المرّة يميل إلى أخضر مزرقّ وركّابها ثلاثة من السادة الشبان. هل تمّ تبديلهم مع السيّارة؟ وما الذي أفضّله أنا - أن يكونوا هم أنفسهم في كل مرّة أم أن يتمّ استبدالهم باستمرار؟ لم أكن أعرفهم، أو الأحرى، بلى، كنتُ أعرف أحدهم: ذاك الذي ترجّل من السيّارة ذات يوم وعبر الشارع في اتجاهي، لكنّه إنما فعل لكي يقف في الطابور أمام دكّان النقانق، تحت نافذتنا، ثمّ ما لبث أن عاد إلى السيّارة حاملاً ثلاث قطع من نقانق فرانكفورت على صحن كرتون كبير وثلاثة أرغفة صغيرة من الخبز وضعها في جيب سترته الباركا الزنجارية اللون. سيارة زرقاء تحمل الرقم... كنت أبحث عن الورقة التي دوّنت عليها أرقام السيّارات التي استطعتُ أن أتبيّنها. كان ذلك السيّد الشاب، أو ذلك الرفيق، يميل إلى السمرة وفي قمة رأسه بدايات صلع، خفيف، فقد استطعت أن ألاحظ هذا الأمر من فوق. ولوهلة استحسنت فكرة أن أكون أوّل من لاحظ بدايات الصلع في رأس السيّد الشاب، حتّى قبل أن تلاحظها زوجته بالذات التي ما كانت بالطبع لتنظر إليه من فوق بمثل هذا التمعّن. ودون أن أقصد تراءت لي صورتهم جالسين بدعةٍ، هم الثلاثة، في سيّارتهم (فالسيّارة من شأنها أن تكون مريحة جدّاً وعلى الأخصّ حين يكون الجوّ عاصفاً في

الخارج ولا يخلو من رذاذ)، يأكلون نقانق فرانكفورت، دون أن يرتعدوا لشدّة البرد لأنّ محرك السيّارة يدور بصمت ويوفّر لهم قدراً من الدفء. ولكنْ ماذا يشربون مع النقانق؟ هل أحضر كلّ واحد منهم، كما يفعل العمّال عادة، زجاجة ترمس مليئة بالقهوة الساخنة؟

لا شكّ في أن مشاعرنا تبدو معقّدة في ظروفٍ مماثلة. وكنت لا أزال أجهل الكلمات الصائبة، فقد كان كلامي لا يفارق كلام المحيط الخارجي، كلام ملائم سوى أنه لا يُصيب القصد، يستعيد الوقائع لتمويه الوقائعي، وبدا لي أنني لن أقدر على الكلام جزافاً وبمثل هذا القدر من اللامبالاة لمدة أطول، ولكن من لا يبالي فما عساه يكون؟ مهموم؟ مُبْتلى؟ «Kummer» ـ بليّة ـ قرأت في معجم هرمان باول للغة الألمانية، موغلةً أبعد فأبعد في هاجسي: «kummer» قد تعني «رَدْم»، «احتباس»، «إملاق» ـ في الألمانية القديمة الدارجة، وحتى «حَبْس» في اللغة القانونية القديمة. احتباس، بلى، إنّه المعنى المنشود، أن تمكث في الحبس متململاً.

«إنه يندم على جعله الانسان على وجه البسيطة، وقد ابتلي في قلبه»، كلام الدكتور مارتن لوثر الذي أراد أن يُقنعني بأننا لا نملك الخيار إلاّ بين القبول أو الرفض، بين الصداقة والعداء. وينبغي أن يكون كلامنا: نعم، نعم أم لا، لا.

كلّ ما يُقال غير هذا مصدره إبليس. وكلّ عبارات التعنيف التي أطلقها الدكتور لوثر ضدّ الحبر الأعظم، الخنزيرة النهمة، وضدّ الفلاحين فيما بعد، الكلاب المسعورة. فطوبى لمن يقدر على جعل عدوّه اللدود خارج كيانه. في لغتي، لن تستخدم أسماء الحيوان إلاّ للحيوان، وأبداً لن أستطيع، كما فعل آخرون، أن أطلق أسماء

الخنازير والكلاب ولا حتى أسماء أبناء مقرض أو الثعابين على السادة الذين يمكثون في الخارج. فما كان يعوزني بلا ريب هو حقد مخلّص ومسو.

على كلّ حال، لم أكن أعرفهم. فما الذي أعرفه عنهم بالضبط. حتى العلامة المميّزة «معاطف الجلد» باتت قديمة وبالية فقد استبدلت بسُتَر البوليايميد النصفية منذ وقت طويل، ولكن ما لا أستطيع أن أبتَّ فيه هو إذا كانت ملحقات البزّة النظامية تلك توفّرها لهم إدارة السلك لغرض الخدمة الخارجيّة أو إذا كانوا يتقاضون سلفة مالية في نهاية العام للتزوّد بها وما مقدار هذه السلفة بالضبط. أو ليس واقع الحال في أيامنا أنّك إذا استطعت أن تعرف شروط عمل شخص ما فهذا يعني أنّك توصّلت إلى نصف معرفةٍ به؟ فأنا مثلاً، كنتُ أودّ فعلاً أن أعرف كيفية تنظيم العمل في سلكهم، أو طريقة تلقيهم الأوامر، إذ ينبغي أن نسمّي الأشياء بأسمائها، أو إذا كانت بعض الوظائف تتميّز عن الأخرى كأن تكون، مثلاً، مهمّة المراقبة في سيّارة خاصة أفضل من نوبة الحراسة أمام أحد الأبواب. وبما أن الفضول قد أوصلني إلى هذا الحدّ: لماذا لا أعرف إذا كان أولئك الذين يذرعون الشوارع جيئةً وذهاباً حاملين حقائب يد معلّقة بأكتافهم، يخبئون فيها، فعلاً، أجهزة اتصال عن بعد كما تروّج بعض الشائعات القويّة. كنتُ أرتاب أحياناً من كونهم لا يحملون فيها سوى رقائق خبز بالزبدة يحرصون على إخفائها وقد ارتسمت على وجوههم ملامح التآمر لحاجتهم، كما في طبع البشر، لأن يشيعوا من حولهم مثل هذا الانطباع. نوع معقّد من أنواع استغلال الوظيفة.. بأية حال يستحيل على أيٍّ منا أن يقترب من أحدهم ويسأله بتهذيب: أعذر تطفلي ولكن ما الذي تحمله في حقيبتك؟ وكذلك الأمر بالنسبة للسادّة ركّاب

السيّارة إذ من غير الجائز أن تقترب منهم لتسألهم عمّا إذا كانوا يستخدمون أجهزة تنصّت، وإذا كانوا يستخدمونها فعلاً فما هو نطاق اشتغالها. وفي المقابل، فإنّ أشكالاً أخرى من التآلف كانت متاحة، حتى صلتك بهم، فهناك دائماً معجم رموز للتفاهم، وإن كان، على الرغم من ذلك، يصعب فهمه أو تعلّمه، فإمّا أن يكون لديك وإمّا ألاّ يكون. فأنا ما زلت أشعر بالندم مثلاً على مقاومة ميلي آنذاك، حين بدأ كلّ شيء، في الليالي الباردة الأولى من تشرين الثاني، لأن أصنع شاياً ساخناً وأقدّمه لهم. وكان من شأن هذا التصرّف أن يُصبح عادة، فعلى المستوى الشخصي ليس هناك ما يجعلنا أعداء، وكلّ واحد منا إنّما يقوم بما يتوجب عليه، وكان بإمكاننا أن نتبادل أطراف الحديث، والكلام ـ لا ليس على شؤون الخدمة بحق السماء ـ بل على الأمور التافهة العادية، الأمراض، العائلة.

ولكن كفاني الآن. تلك الحاجة المخزية التي تدفعني لأن أكون على وفاقٍ مع كافة صنوف البشر. فالشاي، كنّا شربناه، آنذاك، نحن، في ساعة متأخرة من الليل، في الحجرة المعتمة واقفين خلف النافذة التي سارعنا، في صباح اليوم التالي، إلى تجهيزها بهذه الستائر. وفجأة لم أتمالك نفسي من إنارة المكان ومن الاقتراب من النافذة وأبادرهم باشارة، فردّوا عليها بثلاث إشارات من مصابيح السيّارة. كانوا يتمتعون بحسّ الفكاهة. وإذ شعرنا بقدر أكبر من الاطمئنان وقدر أقلّ من القلق المعتاد، ذهبنا لننام. قلقة؟ لم أكن لأعترف بذلك لنفسي أبداً. وهذا بالضبط ما كنت قد فعلته لتوّي، فربّما كان هذا الاعتراف خطوة ضرورية في اتجاه ما لا يشعرني بالفخر. ألم يتولّد إحساس مماثل لدى الأولاد بعد أن تظاهر بأنّه ليس غاضباً حين قال لهم بشيء من الخشونة: «تصبحون على خير!»؟ وكيف لي أن أصف تلك الوساوس

الملحّة إن لم أصفها بالطفولية، بل بالصبيانية، حين كنتُ أجدني، وغالباً ما كنتُ أجدني، مدفوعةً إلى طرح هذا السؤال العبثي: ما الذي تسعون إليه بالضبط؟ كم كان عليَّ أن أتعلّم بعدُ! أن أوجّه كلامي إلى مؤسسة كأنها كائن بشري! غير أني تجاوزت تلك المرحلة الأوّلية، كنتُ أردّد في سرّي لأهدىء من روعي، وما عدت أخدع نفسي بالاسترسال في احتجاجات ساذجة وبريئة، ولكن منذ متى، حقاً؟ ذات نهار أدركتُ أنّ لا وجود لمن توجَّه إليه الاحتجاجات ومحاولات التفسير، وكان عليَّ أن أقرّ بالحقيقة التي طالما رفضت تصديقها، ومفادها أنّ لا سبيل للتواصل مع أولئك السادة الذين يمكثون في الخارج. ليسوا من بين أقراني. إنّهم رُسُل الآخر. لقد انقضى وقت طويل منذُ أن تخلّيت عن فكرة المرور بمحاذاة تلك السيّارات والالتفات بنظرات حانقة للتفرّس بوجوه ركاب السيّارة ذوي النظرات الكابية والذين كانت تقضي مهمّتهم بأن يُظهروا للعيان هويتهم الحقيقية بهدف استثارة الغضب، أو الأحرى: الخوف الذي يدفع، كما هو شائع، بعض الناس إلى تقديم تنازلات، وبعضهم الآخر إلى ارتكاب هفوات من شأنها أن تُستخدم بدورها كأدلّة تؤكّد بل تبرّر ضرورة استمرار مراقبتهم. وكان ينبغي أن يأتي أحدٌ ما، إذا صدّقت إحساسي العميق، ليكسر هذه الحلقة المفرغة.

ذات يوم، سيكون في استطاعتي أن أتحدّث عن هذا كلّه بلغتي الجديدة الطليقة، وسيكون الأمر صعباً لفرط ما كان عاديّاً ومبتذلاً انشغال البال. الأرق. فقدان الوزن. الأقراص. الأحلام. سيكون وصفها متاحاً، ولكن ما الجدوى؟ ففي العالم أنواع أخرى، كثيرة، من الخوف. الشعر الذي يتساقط خصلاً. وما الأهمية في ذلك؟ فها قد نبت من جديد وبات كثاً وأفضل مما كان عليه من قبل، والأقراص

ظلّت مهملة في الدرج. كانت الأمور تعود إلى مجراها الطبيعي. أمّا الأحلام، فعنها أقول بلى. لا أنكرها، ولكنْ أثمة مكان في عالم يستطيع الناسُ فيه، وفي أيّامنا هذه، أن يحيوا بلا أحلام مزعجة؟ لا. كنتُ أحدّث نفسي كلّ يوم بأنّ حياة مليئة بالامتيازات كحياتي لا يمكن أن تجد ما يبرّرها إلّا بمحاولتي، من وقت لآخر، لتخطي حدود ما يمكن قوله، مع اليقين بأنّ كلّ خرق لحدود المُتاح يستتبع عقاباً. ولكنْ، ردّدتُ في سرّي ـ دون أن أغفل حقيقة أني بتّ أحدّق، منذ دقائق معدودة، ببرج التلفزيون الذي ينتصبُ منحرفاً إلى الجهة اليمنى من حقل بصري فوق سطح عيادة الأمراض النسائية وطبّ العيون ـ لن أقدر على الاقتراب من حدود اللغة تلك إلّا حين تواتيني الشجاعة لأن أفسّر لماذا في تلك الأيام التي لم تكن السيّارات موجودة فيها بالفعل بل كانت مجرّد أطيافٍ في عينيّ، لماذا إذن لم يكن القلق ليفارقني، بل ولم يكن حتّى أقل وطأة من أيّام المراقبة الفعلية. وفكرتُ أنّه ينبغي عليّ أن أنكبّ على تفحص هذه النقطة بالذات علّني أجد تفسيراً لها وفي أيِّ لغةٍ كانت، لا أبالي.

الحقُّ يُقالُ، كم من الوقتِ كنتُ أودّ بعدُ أن أمنح نفسي؟

كان الوقت إحدى كلماتي التي أردّدها دائماً. وذات يوم، أدركتُ أخيراً أنّ الصلة المختلفة جذريّاً بالوقت، وربّما أكثر من أي شيء آخر، هي بالذات التي تجعلني مختلفة عن هؤلاء السادة الفتيان في الخارج هناك ـ وبالطبع كانوا لا يزالون هناك! فالحقيقة أنّ الوقت فيما يعنيهم لا قيمة له، فكانوا يهدرونه في بطالة عبثية، ولكنْ مكلفة بلا ريب، وستفضي بهم في آخر الأمر إلى الإحباط، إلّا أن هذا ما كان ليقلقهم على الإطلاق، بل على العكس من ذلك، فقد انتابني احساس مفاجىء بأنّ مثل هذا الأمر لا يلائمُ طباعهم على أكمل

وجه. كأنّهم كانوا يغرفون الوقت بجماع أيديهم ويرمون به، بتلذّذ كبير، من النافذة. أو، إذا افترضنا أن ذلك ممكن، أتراهم قادرين على وصف عملهم أو تصنيفه؟ حتّى هذا كان يبدو مُستحيلاً. مستحيلٌ، لا: فالأرجح أنّهم عند المساء حين يعودون إلى منازلهم، يُلاقون زوجاتهم بملامح تظهر لمن يرغب كم استطاعوا، في ذلك النهار بالذات، أن يبرهنوا مجدّداً على كونهم من العناصر التي لا يُستغنى عنها. ولكن تقول شائعات أخرى أنّ أحدهم لا يتمالك نفسه على مائدة العشاء محاطاً بأولاده الصغار من أن يروي بالتفصيل محصّلة يومه: مكامن الوهن في طباع المُراقبين الشخصيّة، علاقات غرامية غامضة، على سبيل المثال، من شأنها، لو أمكن لمن هو مثله بالكلام، أن يُسبّب بعض الاحراج لبعضهم أو لبعضهنّ. ولكنّ الواجب يقتضي صمت القبور وكذلك الضمير المهنيّ. وكنتُ واثقة من احترام قاعدة التكتّم. أمّا الآباء المتبجّحون فكانوا استثناء القاعدة. ولا بدّ أنّهم كانوا يعرفون جميعهم أنّ أيّاً منهم قد يُصبح غير مرغوب فيه بين لحظة وأخرى.

كلّما حضرتني هذه الخاطرة كنتُ أشعر برعشة تصلّب ظهري كما في المرّة الأولى.

الهاتف. صديق. مرحبا، قلتُ. لا، أنت لا تزعجني وتقاطع عملاً مهمّاً. ولكنْ لماذا لا أقاطع أحد أعمالك المهمّة، قال بلهجة تأنيب: آه! قلت، يستحيل أن أجاوب على هذا السؤال بعبارة واحدة. بوسعك أن تستخدمي عدداً منها، قال. لكي يتمّ تسجيلها، قلت. بقولك هذا لا بدّ أنّك تستخفّين فعلاً بقدراتنا التقنيّة، قال: لا بدّ أن يبقى شريط لاستعمالنا الشخصي أنا وأنت! كم هي مكلفة، قلت.

تبع كلامنا هذا ضحك اعتدنا عليه في مثل هذه المواقف، ضحك استفزازي قليلاً ومُتباهٍ قليلاً. ماذا لو أنّ لا أحد يتنصّت على المكالمة؟ وماذا لو كنّا، بكلّ جدارتنا ولعبة الجرأة الصغيرة تلك لا نفعل سوى أن ندور حول أنفسنا؟ عندها لن يكون ثمة فرق. كنتُ أودّ أن أستغرق في تأمّل هذه المسألة.

ولكنْ لماذا أجد صوتك غريباً هذا الصباح؟

كيف تجد صوتي إذن؟

أوه، قال صديقي، نبرتك ليست واثقة أم أن سمعي يخدعني.

أوه، قلتُ، كيف لا تكون نبرتي واثقة حين تكون أنت من يتصل بي - وهكذا على هذا النحو حتّى النهاية.

هكذا اعتدنا أن نتخاطب دوماً. بعبارات موازية، على هامش القول الفعلي. ولم أستطع إلاّ أن تحضرني ذكرى مرتين أو ثلاث غاب فيها النصُّ الفعلي عن ذهني لأنني لم أستطع خلالها أن أحفظه وكيف جحظت عيناه آنذاك وتبدّل صوته. وهـ. كيف حـاله، قال. على ما يرام، قلت، سأذهب لزيارته بعد الظهر. ونحن يا سيّدتي؟ سأل. متى نلتقي؟ فأجبت بعبارة من النصّ الفعلي: في أقرب وقت ممكن. حسناً جداً، قال. سيأتي إلى المدينة خلال الأيام القليلة المقبلة وسيتصل قبل مجيئه ليتسنى لي أن أسخّن الماء لصنع القهوة. وتابع قائلاً: أن ثمّة شخصيّات مرموقة نعرفها جيّداً ونحترمها تنكبّ الآن على عبارة «الماء لصنع القهوة» لاكتشاف ما ترمز إليه من معنى حقيقي.

لم أكن استحسن مثل هذا النوع من الدعابات. قهوة؟ قلت. كنتُ أحسب أنك تفضّل الشاي؟ لا، أبداً، قال، ولا تبدئي الآن بقلب القاموس الاصطلاحي رأساً على عقب. حسناً، قلت. فقال بعد فترة صمت وجيزة بصوتٍ مماثل: لديك زائرون، أليس كذلك؟

لم أكن استحسن هذه الأسئلة أيضاً، ولكني أجبت: أجل - إذ لم أقدر على الكذب.

هذا رائع إذن، قال صديقي. إلى اللقاء.

عندئذ رأيتني أصرخ عبر الهاتف: قل لي! اسمع قليلاً! ذات يوم سنصبح عجوزين، فكّر جيداً في هذا الأمر!

كان قطع المخابرة. أمّا أنا فعدت إلى طاولة المكتب وجلست مُسندة وجهي إلى راحتيّ. بلى. هكذا نقضي أيام حياتنا المعدودة. لم أكن أبكي. وإذا ما فكّرت ملياً أجد أنني لم أبكِ منذ وقت بعيد.

وعلى الرغم من أنني قضيتُ الساعات الأولى من ذلك النهار في تبطّل كامل، قرّرت، في تلك اللحظة، والتي يُفترض خلالها أن أكون منكّبة على العمل، أن أخرج لأقوم ببعض المشتروات. وكان هذا بمثابة انتصار للآخرين، فأنا لا أصدّق الأوهام حول هذه النقطة بالذات، ذلك أنه إذا كان هناك أي قيمة معنوية أتشبث بها فهي من دون شكّ القيمة المعنوية للعمل، هذا فضلاً عن أنّها كانت تبدو لي خليقةً بتعويض بعض النقص في الأنساق الأخلاقية الأخرى. فأنا لم أكن راغبة في التخلّي عنها، على غرار ما فعله أولئك السادة الفتيان، حين انقادوا إلى إغواء نصاب التفرّغ الذي جُمِّل، على إملاقه، في أعينهم بدل أن يعملوا فعلاً، وربّما كانوا في انقيادهم هذا مُستسلمين

لميلٍ قاهر للانحياز والتبعيّة.

ما الأمر. الانهماك في التفكير مرّة أخرى بدلاً من الآخرين؟ أن أنتعل حذائي. وأن أرتدي المعطف وأقفل رتاج الباب دورتين والأفضل إذا كان ممكناً، ثلاث دورات مع العلم أنّ لا فائدة تُرجى من هذا الحرص عند الحاجة، ذلك أنّ مرّة على الأقلّ، ومرتين بالتأكيد خلال الصيف الماضي، استطاع هؤلاء السادة الفتيان أو زملاء لهم مختصّون بفتح الأبواب، أن يدخلوا إلى شقتنا أثناء غيابنا عنها، ولم يتنبّهوا برغم ذلك إلى وسوسة السيدة ك. بالنظافة والتي حين تغادر الشقّة بعد فراغها من العمل، تمسح آثار خطواتها خلفها بخرقة مبلّلة، الأمر الذي أيقظ في روعها بعض الشكوك حين جاءت في اليوم التالي ورأت بوضوح أثر نعل مطاط لحذاء رجل قياس ٤٢/٤١، على بعض العتبات وعلى البلاط الداكن لحجرة الوسط. على الأثر وبعد أن مسحت آثار الأقدام بعناية قبل أن تغادر الشقّة، عمدت السيّدة ك. التي لا تُحبط عزائمها بسهولة، إلى ذرّ قليل من الطحين، «حسب العادة القديمة» كانت تقول، على ممسحة الأرجل خلف باب المدخل، لكي تظهر فيها في اليوم التالي، كما ينبغي أن نتوقّع، آثار الأقدام بوضوحٍ أكبر. ومن جهة ثانية كانت أجزاء مرآة الحائط المحطمة مكوّمة في المغسلة دون أن يظهر سببٌ واضح لذلك. فكان الاستنتاج بديهيّاً: أنّ هؤلاء السادة الفتيان لا يُبدون أدنى نيّة في إخفاء آثار زيارتهم لشقتنا.

هذا ما يُسمّى بالترهيب، قال أحد الأصدقاء الذي كان يزعم أنه على علمٍ تامّ بمثل هذه الأمور، ولكن هل أرهبتنا زيارتهم؟ أقصدُ، ربّما بلى في آخر الأمر. بالطبع كنّا نخفض أصواتنا حين نتطرّق في

أحاديثنا مع آخرين داخل الشقة إلى بعض المواضيع (وكانت تلك المواضيع بالذات مادة أحاديثنا التي لا تنضب)، كنت أقوّي صوت المذياع خلال بعض النقاشات وفي بعض الأحيان كنّا ننزع خطّ الهاتف عندما نستقبل ضيوفاً، إلاّ أننا ما كنّا لنغفل للحظة واحدة عن واقع أنّ التدابير التي يلجأ إليها الآخرون وردود فعلنا عليها يتداخل بعضها في البعض الآخر كأسنان سحّاب لا شوبَ فيه. وما كان هذا ليدفعنا إلى التشبُّث بأمل. إذ ربما كان الأمل يكمنُ في حقيقة أنني بتُّ، منذ الصيف الفائت، لا أشعر داخل شقتي بأنني في بيتي.

دلفتُ إلى الشارع. أما زالوا هناك؟ كانوا هناك. تراهم سيتبعونني؟ لمْ يتبعوني. فبرأي صديقنا، الذي يزعم العلم بمثل هذه الأمور، أننا نخضع لمراقبة من الدرجة الأولى، أي مراقبة تحذيرية، والتي ترفق بتعليمات واضحة للوحدات المنفّذة: حضور مرئي. أما المراقبة من طريق تتبع الخطى فهي تنتمي إلى درجة مختلفة وتستخدم فيها سيّارة أو اثنتان وقد يصل العدد إلى ستّ سيارات (يا لأكلافها الباهظة!)، ودرجة أخرى مختلفة للمراقبة السريّة والتي لا يتعرّض لها المرء إلاّ إذا كان محطّ شبهاتٍ خاصة. والظاهرُ أننا غير معنيين بهذا النوع أيضاً؟ وهزّ الصديق الذي يعلم كتفيه. وبأية حال، قد يحدث أيضاً أن يُخضع شخص ما لشكلين مختلفين من المراقبة.

على أيِّ حال قد يتعقبني أحدٌ سيراً على الأقدام أيضاً. ولكنْ كنتُ لا ألمح في الأخيلة التي تعكسها الواجهة الزجاجية لمتجر مستحضرات التجميل أيّ وجه مشبوه. وبعد أن تملّكني قلق غامض وجدتُني أتنفّس الصعداء. لقد أكدّ لي أحد الاخصائيين في الأدب الروسي أنّ أخماتوفا لبثت عشرين عاماً تحت مراقبة مُتعقّب خاص بها. هذا ما

كنتُ أتخيّله آنذاك أثناء سيري انحداراً في شارع فريدرشتراس كما يسير أي انسان عادي لا يشعر بأنّه مُتعقَّب أو مراقب، متسائلة، على رغمي، لمن أدين بمثل هذه الحظوة وبدأتُ أشعرُ كم ينبغي أن تكون الحريّة حَرفيّة ومُطلقة في قلب الدائرة المغلقة لحصار محكَم. حتّى أنّهم لم يُظهروا لي أدوات تعذيبهم، فكّرتُ. ولكن ما الذي كان يدفعني إلى التفكير على هذا النحو. بلى: كانت مسرحية غاليليو تعرض في حفلة مسائية، على خشبة البرلينر انسامبل، وقد أُعلن عن هذا الحدث بحروف سوداء كبيرة على يافطة قماش بيضاء، ولم يعترض أحدٌ عليه، لأنّ المسرحية كتبت في حقبة كان فيها الديالكتيك الفعلي لا يزال نافذاً، وكذلك الأمر عبارات من نوع «سلبيّات» و«ايجابيّات» وحيث كان لقول «الحقيقة» معنى، بل كان مُستهجناً أن تُكتم، دون أن نذكر الأكذوبة الخبيثة التي كان إبليس مصدرها والتي كانت تثقل ضمير الكاذب، وهو شعور لا تزال بقيّة منه متبقّية حتّى أيامنا هذه. وفكّرتُ، قد يكون ما ينبغي أن يُضاف إلى التفكير المتعمّق حول حدود ما يمكن أن يُقال هو التأريخ للوعي الشقيّ. فبأي كلام يوصف عيب اللغة المرتبط بعيب الوعي، وسألت نفسي، كيف تباشرُ اللغة ما ليس موجوداً بالفعل، ولا يحتملُ ولو كلمة واحدة، لا صفات ولا أسماء، لأنّ خاصّة ما لا يوجد هي أنّه بلا صفات، فهو ما تنعدم لديه الذات في المطلق، تماماً كما تغيبُ الذات البلاوعي عن ذات نفسها، وتابعتُ مستغرقةً في أفكاري، ولكنْ أحقّاً هذا صحيح؟ ألم أكن أسعى ببساطة لايجاد مبرّرات تسمح لي بأن أستبعد من دائرة تعاطفي أولئك السادة الفتيان الذين ربّما لم يكونوا، في آخر الأمر، بلا صفات، لأنّهم، من جهتهم استبعدوني من دائرة تعاطفهم؟ الدفاع في مستوى الهجوم. العين بالعين والسنّ بالسنّ. وقلتُ لأناقض نفسي، ينبغي أن تكون لغتي الجديدة قادرة على الكلام عليهم، كما

ينبغي أن تضطلع بكل نقصٍ في اللغة.

لطالما كنتُ أجدُ متعةً كبيرة في عبور الڤايدندامِّر بروك برتولت بريخت المسكين بإيمانه بما يجحد الايمان ويسميه «علماً»، بكلّ ما بذله من جهودٍ للفصل والتي استخدمها كساطور لشقِ مَسرب في غابة المدن والأرياف، لقناعته بأن العالم المنقسم على طرفي هذا الأخدود لا بدّ أن يرسم حدود انفصاله. ولكـنْ خلفـه انغلقت الغابة العذراء على نفسها وأمامنا فغرت أشداق الهاوية. يُفلح غاليليو الحذر والمحنّك في الإفلات من محكمة التفتيش وبذلك ينقذ مؤلفاته. فالكنيسة التي تهدّد بسحقه لم تقدر برغم ذلك إلاّ أن توفّر له السلاح الذي يتيح له الصمود في وجهها: الايمان بمعنى الحقيقة. ولم يبق عليه إلا أن يتغلّب على خوفه. فإذا استطاع أن يجبه الكذب فلأن المسألة تتعلّق إذن بالطباع. ونحن الذين لا يفارقنا القلق أيضاً، فضلاً عن كوننا غير مؤمنين، لطالما جابهنا أنفسنا لأن الأكاذيب وسلوك التملّق والقدح والنميمة كانت تصدر عنّا، بمعزلٍ عنّا، كأنّها نهم العبوديّة والاستمتاع. والتحفّظ الوحيد بهذا الشأن أنّ بعضنا كان يعلم فيما البعض الآخر لا يعلم.

فيما كنتُ متكئةً على حافة الجسر رأيتُ البطَّ والنوارس وزورقاً بمقصورته المطلية بألوان سوداء وحمراء وذهبيّة. كان الطقسُ عاصفاً كما غالباً ما يكون. وعلى ناصية الجسر عُلّق النسر البروسي المعدني والذي رمقني بنظرة استهزاء حين رآني أسير في اتجاهه والذي لامسته بيدي حين مررت على مقربةٍ منه. وكعادتي دائماً حين أعبر هذا الجسر عاودتني ذكرى روحاتي وغدواتي المتواصلة والتي دفعتني حينذاك، أي منذ أكثر من عامين، إلى هذه الشوارع، وتذكّرتُ أنني تقتُ إلى الراحة بلا حياء، أقصد بأيّ ثمن، وأنني كنتُ لا أطيق حتّى ذكرى البهجة،

ذكرى السعادة، وأنني حين أشاهد فيلماً يُعرض لمناسبةٍ عبر التلفزيون وتدور أحداثه حول أملٍ كنتُ أنا أيضاً أنتمي إليه ذات يومٍ، لا أتمالك نفسي من البكاء، أبداً لن أنسى تلك اللحظة ـ كنتُ أجدني أمام واجهة إحدى الصيدليّات، ساهمةً لا ألوي على شيء ـ عندما أدركت فجأة أن الألم هو الذي يؤرقني. ولم أدرك ذلك في البداية. كان الألم الشديد الخالص قد تملّك كياني وحلّ في داخلي فجعل مني شخصاً آخر.

وكان ذلك الإدراك يتزامن، من ناحية أخرى، مع ظهور أولئك السادة الفتيان قبالة باب دارنا، أولئك السادة الذين ما كان ليخطر لهم، برغمِ ذلك، أننا سنلتقي في يوم ما: ففيما كانوا هم ينبثقون من القعر كنتُ أنا أهوي في قعرٍ آخر وأجدني على أرضٍ مجهولة. يدٌ قبضت على قلبي ويدٌ أخرى أغمضت عيني. كنتُ في بلاد غريبة. ولأسابيع طويلة مشيت في شوارع بلا أسماء لمدينة بلا إسم. ثمّ حلّ الشتاء، أوحال وثلوج ذائبة، صقيع رطبٌ ينخر العظام، يخترق جسمي كأنّه لم يكن. غير أنّه كان لا يزال يؤوي ذكريات باهتة لأفراح غابرة، لخبز ونبيذٍ وحبٍّ ورائحة أولاد وأطياف مناظر ومدنٍ ووجوه، وبات لا يرشح منه غير الأسى الذي كنتُ أحسب أنه يصفع من يقترب مني بنسمةٍ باردة.

ساهيةً عن كلّ شيء، اجتزت المسافة القصيرة بمحاذاة الحافة الواطئة المبنية من حجر والتي تنتهي عندَ مدخل الممرّ المفضي إلى باب مقصورة الزجاج ـ ويسمّيها العامّة «حصن الدموع» ـ والتي يتمّ عبرها تحويل مواطني دولٍ مختلفة، من بينها دولتي أنا، إلى مسافرين عابرين، إلى سُيّاحٍ في حركة دخول وخروج تحت أنوار تعكسها

جدران مصنوعة من مربّعات زجاجية خضراء، وتنهمرُ من نوافذ ضيّقة في الأعلى حيث يقف، بملابس رجال شرطة وجمارك، رجالُ السيّد الذي يُسيطر على هذه المدينة ويمارسون حقّهم في حلّ الآثام وامساكها. لماذا كان لا بدّ من بعض التطابق بين الشكل الظاهر للمبنى وطبيعة الغرض المرجوّ منه، فالأحرى أن يجثم هذا المبنى في موضعه كمسخ وليس كمبنى عادي، شُيّد من الحجارة والزجاج وبراطيم الحديد وأحيط بمرجة متقنةٍ يمنعُ السير عليها بالطبع. كان عليّ أيضاً أن أتعلّم الحذر حيال تلك المباني المتقنة، فقد أيقنت أنّها جميعها ملكٌ للسيّد الذي لا منازع لسُلطته على المدينة: الامتياز الفظّ للحظة الراهنة.

عندها فقط فطنتُ إلى أنّ حريقاً كامناً ألهب قلب هذه المدينة في السابق، ولم أكن أعرف بعدُ اسمها، ولكنْ منذ أن كان ينبغي أن يُطفأ وتُخمد كلّ نيرانه التابعة، وتسحق كل شرارة من شراراته الخبيئة تحت الأقدام، تملّكتني سطوة سحرها. كان عليَّ أيضاً أن أحيا، إلى جانب الآخرين قاطبةً، في مدينة ضالّة، مدينة لا غفران لها ولا رجاء، ساقطة إلى قعر مروقها. وأثناء الليل كنت أسمع الخطوات الثقيلة للرجل الآلي الذي يضع كفّه المعدنية على صدري. فالمدينة ما عادت مكاناً بل أصبحت اللامكان، بلا تاريخ أو رؤيا أو سحر، أفسدها النهم وأفسدتها السلطة وأفسدها العنف. كان الوقت يتعاقبُ عليها بين الكوابيس والأعمال العبثية ـ كما يفعل أولئك الفتيان في سيّاراتهم وقد أصبحوا أكثر فأكثر رمز مدينتي.

وكان عليَّ الآن أن أتحدّث إلى شخصٍ ما من لحم ودم. فدخلتُ إلى متجر المشروبات الروحية الصغير تحت قناطر محطّة الميترو في شارع

فريدرشتراس، وبدا أنّ البائعة، وهي امرأة في سنّ متقدمة، شعرُها خفيف وذو لونين، لم تكن تنتظر أحداً غيري، فباشرت حديثاً غير مُحدّد حول النبيذ الفوّار الورديّ والذي يُعرضُ، بالمناسبة، للبيع بأسعار متهاودة وإن كان لا يلقى من الزبائن جميعهم ما يستحقّه من استحسان. وإذ أرضتها استجابتي لعرضها تناولت زجاجة ثانية من الرفّ وقدّمتها لي.

وعند سؤالي عمّا إذا كانت تعمل هنا منذ وقت طويل؟ آه! منذ البداية. هنا أو هناك في مكانٍ قريب. فهي برلينية عريقة. وبامكانها أن تروي الكثير بهذا الشأن.

آه! كم في جُعبتها من حكايا فقط لو أرادت أن تحكي! إن الأمور الأكثر غرابة جرت أمام عينيها. لقد كانت تلك المرأة تحبّ كلمة «غريب» فكانت تردّدها باستمرار.. وتساءلت في سرّي إذا كنتُ قادرة على تحمّل المزيد من القصص الغريبة التي تثير الفضول، غير أني تظاهرت بالاهتمام لسماع ذكريات البائعة التي لا يمكن إلاّ أن تكون فظيعة، وكانت كذلك بالفعل، ولكن ما أثار دهشتي هو أنّ تلك المرأة كانت تعلم. كانت تعلم بأنّها استثناء. في البداية فطنتُ لهذا الأمر من لهجتها، وفيما بعد أدركت السبب: كانت حقّاً لا تزال تحتفظ في أعماقها بذكرى صديقتها اليهوديّة، التي قضت بصحبتها شرخ الصبا، والتي كانت ترافقها كلّ صباح في رحلتها، بميترو الأنفاق، من محطة ألكس إلى محطة كودامّ - - حيث تعمل هي في متجر كبير كبائعة مبتدئة، بينما تعمل صديقتها (كانت تدعى الفريده، ألفي: لو سمحتِ! يهوديّة بهذا الإسم: ألفي!) في جمع الأرقام في أحد المصارف. وكانت تجد الأمر مملاً. متى كان ذلك؟ عام ٣٥ أو ٣٦... ولا داعي لأن تجحظ عيناك. كان

صديق ألفي، ضابط الـأس. أس، يلحّ عليها بمرافقته في نزهات، أمّا جوابها هي فكان: لا، فقط إذا رافقتنا العائلة، وإلاّ فلا. ينبغي أن أخبرك بأن الفتى كان مولعاً بها. وبالطبع كان لا بدّ أن تكون العاقبة وخيمة إلاّ أن واحدنا لا يتعلّم إلاّ من تجاربه. لا بدّ أنّه تدبّر لها أمراً ما، قضية فرارها إلى هولندا أو شيئاً من هذا القبيل، فتسرّب إليهم الخبر. وكعادتنا ذات يوم كنا وصلنا إلى ناصية يواشيمشتا، هلر شتراس، حيث كان ينتظر دائماً مرور ألفي من هناك دون أن يغادر سيّارته لكي يحظى منها ولو بنظرة تكون زاد يومه، كانت سيّارته هناك بالفعل ولمّا اقتربنا منها رأينا أنها مليئة برجال يرتدون المعاطف الواقية من المطر وقبّعات الرياضة الصغيرة، وكان صديق ألفي ضابط الـأس. أس جالساً خلف المقود وينظرُ أمامه بنظرات ثابتة، فقلتُ لألفي همساً: مهما حدث لا تلتفتي إلى الوراء! تابعي سيرك قُدُماً وإيّاكِ أن تركضي الآن! ونجونا. وبعد ذلك لم نسمع أبداً عمّا جرى للفتى. ليس بوسع المرء أن يحظى بكلّ ما ترغب فيه نفسُه، وربّما يكون أدرك ذلك. ـ ثلاثون ماركاً، ثمن النبيذ.

بدا واضحاً أن المرأة لم يعد لديها ما تقوله من تلقائها، وإذا أردت أن أسمع المزيد فلا بدّ من طرح الأسئلة. ألفي؟ بالطبع جاؤوا بحثاً عنها هي أيضاً. عام ٤٢ عندما نقلوا آخر دفعة من يهود برلين إلى معسكرات الاعتقال. هي وكافة أفراد أسرتها. أمّا أنا فلم أعثر بعد ذلك على صديقة مثلها، إذ يُصبح واحدنا أكثر تطلباً، أليس كذلك؟ وكلّ ما يراودك من وساوس وأفكار، طوال عشرات السنين. كان بإمكاننا أن نساعد أحدهم على الاختباء إذا دعت الحاجة، ولكن أكان بإمكاننا إيواء العائلة كلّها؟

إنه جنون خالص، قالت بعد أن أوليتها ظهري في طريقي إلى

الباب. عندما أستحضر هذه الذكريات أرى أنّها جنون خالص.

لم أكن راغبة في الاستغراق فوراً في التمعّن بما قالته، وساهمةً ألقيتُ نظرةً ثابتة على رفوف مكتبة المحطّة وتريّثت قليلاً عند كشك الصحف والمجلّات ولكنْ عبثاً، فصممتُ أخيراً على الذهاب إلى المتجر الكبير الذي افتتح حديثاً في المركز التجاري. إلّا أنّ ثمالة المشتروات، وأثرها التخديري المجرِّب، لم يأتيا فعلهما، ولكنّي حظيتُ بعصير الغاسول الرومي لـ ِ هـ. فهو دائماً يشعر بالظمأ، كما قال لي. كانت جميع النساء اللواتي يقفن في الطابور أمام طاولة عاملة الصندوق، سميناتٍ جدّاً، أو غالبيتهن الساحقة، وكنّ يقفن بغير انتظام. وعلى جاري عادتي كنتُ أبحث عن الوجه الذي سيلتفت نحوي استجابة لندائي الذهني، فلم أعثر عليه، إلى أن سمحت امرأة شابة، لا تزال في متوسط العمر، لامرأة تكبرها سناً بأن تقف أمامها في الطابور لأنّها لم تعد قادرة على الوقوف. إذن لا يزال الأمر ممكناً، قلتُ في سرّي. لا بدّ أنّ الأمر لا يزال ممكناً. وبرغم كل شيء كان طغيان الاحساس بالغربة، وما يُسبّبه من عزلة، لا يتبدّد، غير أني كنتُ أعلم يقيناً أنّ لا طائل في التشبُّث بما رأيتُ، حتّى لو كانت أولئك النسوة اللواتي يقفن أمامي في الطابور لا يعلمن شيئاً من هذا. ويكاد لا يخطر لهن على بال، بل ما هو أسوأ: لا يرغبن في أن يعرفن شيئاً ـ فمن غير الجائز أن نعاينهن عن قرب، بل أبعد بقليل، أعلى بقليل، في اتجاه المستقبل.

بلى، بلى، اعترف. كنتُ بدأت أسأم من نفسي. فقصدتُ أيضاً مركز البريد لأسحب بعض المال. وكان باستطاعة من يعرفني جيّداً أن يرى بوضوح مقدار سخطي. فقد أصبح الأمر يفوق قدرتي على الاحتمال، وطالت عليّ وطأته، وإن كنتُ في الوقت نفسه أسألُ في سرّي إلى أين سيُفضي بي استعجالي وما أتحرّق لانجازه بفارغ الصبر.

تلك الحياة المزدوجة العميقة السرّ، دائماً. تلك الاثارة التي يُشيعها ما هو غير مؤكّد والتي تصبح طريقة في الادمان كالمخدّر. تلك الحاجة التي كنتُ دائماً استشعرهـا للتعبير عن كل شيء. كنتُ قد انتبهتُ منذ بعض الوقت إلى صديق قديم، كان هناك، وكنتُ واثقة من أنّه رآني هو أيضاً. للحظة خاطفة تلاقت أنظارنا، ولكنّ يورغن لم يُرد أن يتعرّف بي فأشاح بأنظاره عني قبل أن أفعل أنا نفسي ببضعة أعشار من عشر الثانية. ولكنّي خبرتُ ذلك. وكم كنتُ قد خبرتُ ذلك: الستار الذي ينسدل أمام عيني الآخر. حراشف الأسماك التي تغطي بياض عين الصديق. والغمامة التي تعكّر صفو حدقته. كأن واحدنا لم ير الآخر ولا عرفه. ليكن. لحسن الحظ ربّما. يكفي أن يتوجه إلى شبّاك توزيع مختلف، وينتهي الأمر، ينهمك بشكلٍ ملحوظ بالمستندات التي ينبغي أن يقدّمها للآنسة موظفة البريد، وينشغل بملء استمارات غير ضروريّة لكي لا يجد نفسه أمامي فجأةً عند المدخل. ولكن بإمكان الآخر، وهنا أقصد يورغن م. أن يطمئن: فأنا ألعب لعبته. فقد سارعت إلى الخروج وليس في نيّتي أن التفت نحوه.

منذ متى لم أعد أبادر، في الحقيقة، إلى الاقتراب من صديق قديم قبل أن أتبيّن حقيقة رغبته هو في التحدّث إلي؟ منذ متى وأنا مصرّة على أن لا أكون المبادرة إلى مدّ يدي لمصافحة أحد؟ أو أبادر إلى التحدّث إليه؟ أو انكفىء على نفسي بتحفّظ شديد؟ واستطراداً هذا السؤال: كم من مرّة ينبغي أن ينتقل الآخرون إلى رصيف آخر فور مشاهدتك، وأن يستغرقوا في تأمّل أقرب واجهة لأقرب متجر، أو أن يبدّلوا أماكنهم في المطعم أو يولـوك ظهورهم أثناء الاجتماعات، لكي تفهم وتتصرّف على هذا الأساس؟ كم من مرّة ينبغي أن تظنّ أنّها مجرد «مصادفة» لكي تُصبح قادراً على التيقن من أنّه «قصد»؟ ولم أستطع

أن أتمالك ابتسامة لأنني أغتبط كلّما تثبّتُ من أن الأجوبة الاحصائية لا تستطيع أن تكون الأجوبة الشافية على الأسئلة الحقيقية.

ليست خسارة، قلت في سرّي. يورغن م. لم يكن خسارة بالنسبة لي، فلماذا إذن يزعجني أن يتهرّب من ملاقاتي؟ لماذا يزعجني الأمر كلّما صادفت مثيلاً له؟ ولماذا لا تتصلّب مشاعري حيال هذا الأمر الذي لايني يحدث؟ ما الذي تعطّل فيَّ؟ أي أوالية لم تَعُد صالحة؟ حسناً إذن، لنَستعرض الأمور برويّة، أحدها تلو الآخر، وعلى الأخصّ، دون أن نستعجلها. يورغن م.. متى رأيت يورغن م. هذا لآخر مرّة. منذ زمن طويل، هذا ما أستطيع أن أقوله بالتأكيد. لم تكن مناسبة لقائه منفرة إلى هذا الحدّ. ألم أناكفه قليلاً بسبب ربطة عنقه ذات النقوش الكبيرة؟ ولكنّه في المقابل قدّم لي كأس النبيذ التي كان قد تناولها التوّه عن الصينيّة، بانحناءة تبجيل ساخرة. ثمّ تناول كأساً أخرى له وشربنا نخباً، لم أره منذ وقت طويل ولكننا تعارفنا. كان يريد أن يعلم إذا ما أعجبتني اللوحات. بعضاً منها، قلتُ. كان ذلك بمناسبة افتتاح معرض للرسوم في مارشتال، وكان جوّ المدعوين لا بأس به، أناس يلتقون بعد افتراقهم لوقت طويل ويتحدّثون فيما بينهم عن ظروف حياتهم وكأنهم أمضوا كلّ الأعوام المنصرمة في بلدان مختلفة. وكنّا أمضينا تلك السنوات في بلدان مختلفة. وكعادتي، حين يكون الأمر ممكناً، كنتُ ألتزم بقواعد اللعبة، وسألت يورغن م. كيف يقضي أيّامه. أنا؟ قال. آه! كما تعلمين، نتدبّر أمورنا.

لم يتفوّه بكلام آخر، إنْ لم تخنّي الذاكرة. يورغن م.، صديق زميلة دراسة، الذي كان أصدقاؤه يتوقّعون له مستقبلاً باهرا. يورغن م. الفيلسوف. ألم يلفت إليه الأنظار ببعض المقالات التي نشرها وكان لها

وقعٌ صاخب؟ وتذكّرت أنّه كان أشدّ نحولاً آنذاك، ويعتني بفرق شعره، وبعد أن قطع صلته بصديقتي، أي منذ زمن بعيد، لا أذكر أنني التقيتُ بهما وابتعدا عنّي هو في البداية، ثمّ هي. تراه ما زال يكتب في المجلّات المتخصصة؟ وهل أنجز كتابه الذي كان يتحدّث عنه دائماً؟ أم أنّه سقط مُحبطاً من نفسه ومن العالم، ولعلّ هذا ما يدفعه إلى تجنّب اللقاء بمن كان يعرفهم من قبل؟ أكان ينبغي إذن أن أقترب منه؟ ولكن ألا توجدُ أسباب أخرى تتعلّق بيورغن م. بالذات؟

مرّ رجلٌ من ورائي وكان يصفُرُ بقوّة ألحاناً حادّة تردّد صداها تحت قباب ميترو الأنفاق وغلب على صخب الازدحام. ولكنْ أي لحن، أنا أعرف هذه الأغنية: «لقد عاهدنا كارل ليبنخت ولروزا لوكسمبورغ نمدّ سواعدنا»، كان الرجل يصفر لحن هذه الأغنية. فجعلتُ أبكي كان ينبغي أن يتوقّف كلّ هذا. ولا بدّ أنّ كل هذا سيتوقف للأسف قريباً، من دون شك. وكان الرجل الذي يصفر هذا اللحن، ثقيل الوزن عريض المنكبين، على مشارف الأربعين يرتدي طقماً من المخمل المضلّع الأسود، على غرار ما يرتديه النجّارون. سوى أنّ أزرار سترته ليست لامعة، كان يمشي مباعداً ما بين ساقيه ويصفر غير مبالٍ بالعابرين الذين يلتفتون إليه، ووصل إلى باب متجر الحلوى ودلف إلى داخله.

أكان في وسعي أن أتخيّل امرأة إلى جانب ذلك الرجل؟ لا، ما كنتُ أستطيع. فهناك نساء يصعب عليّ دائماً أن أتخيّلهن برفقة أي رجل. أمّا في تلك الحال فكان الأمر معكوساً. فقد كان ذلك الرجلُ استثناءً. إذ لم أكن أجد صعوبةً في تخيّل امرأة تمشي إلى جانب يورغن م. ،امرأة من طينة أولئك النساء العاديات اللواتي يتجاوزن

بالكاد مستوى الوسط، ذلك أنّه في انفصاله عن صديقتي، وهي من دون شك امرأة صعبة المراس وإنما شديدة التميّز، لا بدّ، أن يكون ارتبط بامرأة عادية. أم أن صديقتي هي التي هجرته وقتذاك؟ أو لم تراودنا، نحن جميعاً، بعض التساؤلات عندما انفصلا بعد انقضاء سنوات طويلة على علاقتهما؟

تبّاً له، ما الذي أجنيه من انشغالي به، يورغن م. هذا. أيستحقّ هذا القدر من الاهتمام. أليس هو من كتب ذات يوم، وفي مرحلة مماثلة من التوتر، تلك المقالة المقزّزة ضدّ استاذه! ومن شيمي أنا أن أنسى وأن أخلّ بما عقدت عليه العزم: أن لا أخاطبه أبداً. ورأيتني أتحدث إليه عن ربطة العنق المضحكة، بل ورأيتني أعجب لانهماكه بتقديمه لي كأس النبيذ! ببساطة لا بدّ أنه شعر بارتياح كبير حين بادرت إلى مخاطبته. وها إنّ الأمور تتبدّل مرة أخرى، وتحلّ بمجراها الطبيعي، بلى، حقّاً، وأصبح بإمكان يورغن م. أن يسمح لنفسه بأن يتجاهل وجودي. بل أدهى: لم يكن لديه الحقّ بأن يخاطبني. وربّما كان على علم بما...

حسناً، هيّا لنستعرض كلّ هذه الأمور على التوالي. وعلى الأخص، برويّة. ماذا عساه يعرف؟ رجل من طراز يورغن م. ما الذي قد يعرفه أكثر مما توفّره له بعض الصلات الرسميّة الواهنة والشائعات الكثيرة الرائجة، وهي المصادر التي قد تكون له أكثر من كافية. ومع ذلك لا بدّ أنّ أحداً ما بالإضافة إلى أصدقائي، يعلم جيّداً بوجود أولئك السادة الفتيان عند بابي.. لم لا يكون، على سبيل المثال، الرجل الذي أرسلهم في هذه المهمّة.

كانت تعاودني، تلك الفكرة الهاجس، وسرعان ما فطنت لذلك،

ولكني لم أستطع تمالك نفسي من التلذّذ بالاستغراق فيها: لا بدّ أنّ أحداً ما، وخارج ما هو مهمٌّ فعلاً، يعرف كلّ شيء عنّي. ولا بدّ أن تتجمّع، على مكتبٍ ما أو في رأسٍ ما، كافة المعلومات بشأني - تلك التي ينقلها السادةُ الفتيان، وتلكً التي تلتقطها أعمال التنصّت على مخابراتي الهاتفية، وتلك التي يجمعها مراقبو بريدي. وماذا لو كان رأس يورغن م.؟

لقد بدت لي تلك الخاطرة جديرة بالاهتمام، لأنّ الخاطرة العفوية التالية كانت: في هذه الحال، يكون قد نال مراده أخيراً. لقد أدهشتني تلك الخاطرة. فمنذ متى أشعر بأنّ لي بعض المآخذ على يورغن م.؟ ومنذ متى أحسبُ إذن أنني أعرف جيّداً ما يريد؟ فما الذي حفظته ذاكرتي، دون أن أرتاب أنا نفسي للحظة واحدة بالأمر، بشأن يورغن م.؟ يورغن م. المحاضر - أجل، هذا صحيح، هناك قضيّة من هذا القبيل. قبل قضيّة استاذه أم بعدها؟ لست أدري. كان يُعرف عنه مُسبقاً أنّه مشهور بصراحته، وبالفعل، كان صريحاً، غير أنّ ما يصدر عنه، كان في نظري ليس أكثر من تبرير لأعمال سابقة أو لاحقة. وأذكر كم كان عددٌ من زملائنا مبهوراً بيورغن م.: أخيراً جاء أحد ما ليقول الأشياء كما هي. كان يُلاقي التصفيق الحماسي، على ما أذكر، فأشعر أنا بالاحباط وتنتابني الرغبة في أن أهرع إلى بيتي، ولكنّه كان ينتظرني دائماً عند الباب ويدعوني مُرغمة بصحبة الآخرين للذهاب إلى المقصف. كانت ليلة طويلة من الشراب، وكانت أمسية طويلة. لم أكن أعرف من قبل أن يورغن م. يشرب. وعندما راح يُحدِّث فاقداً قدرته على التحكّم بما يقول، ارتكبت هفوة أن أسأله: لماذا تشرب؟ وعندها التفت نحوي بصورة مفاجئة كأنني صفعته. أما زلت على ترفعّكِ يا سيّدتي! قال. كان هذا الرجل يبغضني. هل أزعجتك بأمرٍ ما، قلتُ وقد أسقط في يدي، وكأنّ هذه

العبارة اخترقت سدّاً كان يورغن م. قد شيّده من حوله وتدفّق لسانه، بغير قصدٍ منه، بسيل من الاعترافات التي لا يُسرّ بها المرء إلّا لذاته، والتي كان عليّ أنْ أسمعها ولا أرغب في سماعها لأنني كنتُ أعلم: بعد ذلك لن يبغضني فقط، بل سيُصبح خطراً عليّ. إلّا أنني كنت مستسلمة لسيل غضبه ولفضولي أنا، وهكذا علمت أن يورغن م.، ومنذ سنوات، يتابعني عن كثب ويتابع أمور حياتي. وأنّه يعرف كل كلمة تفوّهت بها أو كتبتها، ويعرف بصورة خاصّة كل كلمة رفضت أن أتفوّه بها. وأنّه يعرف أيضاً ظروف حياتي كما قد يعرفُ أي شخص من الخارج ظروف حياة شخص آخر. وأنّه استطاع أن يتغلغل إلى ما في داخلي عبر أفكاري وأحاسيسي، بقوّة كانت تصعقني، وأنّه ينظر إلي كشخص حظي بالنجاح والسعادة ـ الأمر الذي ما كان إلّا ليؤجج ضغينته. وكشخص متعجرف، وعلى الأخص، كشخص متعجرف. مُتعجرف، سألته لشدّة غبائي، بحقّ السماء! بأيّ معنى. بمعنى أني اعتقد، على ما بدا له، أنّ في وسع المرء أن يحظى بما حظيتُ به دون أن يكون مُجبراً على الارتهان. هيّا، كفى، أجبتُ في محاولة مني لصدّ هذا القدر من الاضطهاد، على أي حال لسنا في القرون الوسطى! ـ في تلك الليلة كان الشؤم يلازمني، وما تفوّهت به لم يكن سوى الكلام الذي كان يتوقّع صدوره عني، ذلك أنّه، هذه المرّة، استشاط غيظاً وبلا أدنى مراعاة. لسنا في القرون الوسطى! إنّه بيت القصيد! فهذا بالضبط ما أعتقده أنا وبجرأة تامّة، ولا بدّ أنني لا أؤمن إلّا بهذا فعلاً، وأنني لا أكتفي، كما كان يحسبُ إلى حدّ الآن، بالتصرّف ببراعة بهذا الشعار، لكي أسمح لنفسي بما يحلو لي تحت هذه اليافطة، فمن يجرؤ، في أيامنا هذه، أن يلتزم، دون قناعة منه، بمثل هذا الشعار؟ وكلّ ألاعيبك البهلوانية في

الفضـاء، قال يورغن م، هذا التلاعب على الحبال دون سقوط. أمّا هذه المرّة، ووجهاً لوجه، فيودّ فعلاً أن ينزع الغشاوة عن عيني. لسنا في القرون الوسطى؟ أوه، بلى وألف بلى يا سيّدتي! نحن في قلب القرون الوسطى. إذ لم يتبدّل شيء باستثناء بعض المظاهر التافهة. ولن يتبدّل شيء وإنْ أراد من يعلم أن يرتقي عن مستوى سواد من لا يعلمون، إذن، عليه أن يرتهن، حسب ما تقتضيه أصول اللعبة منذ البداية. وإذا أردتِ أن تعلمي حقاً: ينبغي أن يسيل الدم، حتّى لو لم يكن دم المعنيّ. حتى لو لم يكن دائماً دم المعنيّ.

وقد أدركتُ الآن مجدّداً ما كنتُ أدركته بصورة مباغتة وقتذاك: إنهم يُمسكون به جيّداً. وأذكر أنّ كبريائي -إذ ربّما كان محقاً بهذا الشأن نظراً لخبراته في علم النفس- دفعني إلى سؤاله بصوت خفيض: لماذا لا تنسحب. وأنّه امتقع لونه كجدار، وجاحظاً عينيه قرّب وجهه من وجهي فعبقت في أنفي رائحة الجعة التي تضمّخ أنفاسه، وأنّه قال لي وقد صحا من سكره هاتين الكلمتين: أنا خائف. على الفور عاد إلى التظاهر بالسُكْر، فنهضتُ وضربت بجماع كفي على الطاولة لأستأذن في المغادرة وغادرت. بعد ذلك، لم أرَ يورغن م. مرّة ثانية طوال سنوات، ونسيتُ ذلك الموقف الذي لن ينساه، هو، أبداً، والآن لم يعد في حاجةٍ لأن يعرفني. فقد أصبحت له مكانته في الدار ذات الألف هاتف، ويجمع بمزيد من الغبطة كلّ ما يحظى به بمعلومات بشأني والتي لا تتوفّر لأي شخص آخر، وفي كلّ صباح يشكر القدرة القادرة التي وضعته في هذا الموقع الذي يُرضي طمعه الشغوف ويجعله في نفس الوقت من عناصر المجتمع الصالحة.

مثلي أنا في موقعي.

ودون أن ألوي على شيء، عدتُ أدراجي سيراً في ويدندامر بروك

من الناحية الثانية وفي الاتجاه المعاكس، ولم أكن أتمالك نفسي عن التفكير في الملفّات التي نُسّقت في داخلها بلا ريب كلّ المعلومات الخاصة بي. إلّا أنّ هذا الأمر لا يتمّ إلّا إذا اختيرت بعناية ودُبّجت، إذا دعت الحاجة، وأمليت على إحدى السكرتيرات. وإلّا كيف ينبغي أن أتخيّل هذا الأمر. أينبغي أن أتخيّل يورغن م. وهو يدخل إلى مكتبه صباحاً في الساعة الثامنة بالضبط، وأوّل ما يفعله ـ لو سمحت لمخيّلتي بمثل هذا التبجّج ـ هو أن يتناول اضبارة قليلة الأوراق تحمل إسمي. وفي داخلها إذن، تقرير عن تحركاتي لليلة البارحة، فيستغرق يورغن م. في قراءته بمتعةٍ بالغة. آه، آه! بالأمس ـ يقصد اليوم ـ تلقّت مخابرة هاتفية في الساعة التاسعة وخمس وأربعين دقيقة. المتصل: يتبع اسمُ صديقي. ويتبع: نسخة عن محادثتنا من شأنها أن تدفع يورغن م. إلى الابتسام إذ أصبح بإمكانه أن يسمح لنفسه ببعض الفكاهة. ولا بدّ أنّه ليسمح لنفسه أيضاً ببعض الاحتقار. «كلمات ملغّزة»، «قهوة»، «شاي» ـ آه! يا لبؤس المبتدئين! ذلك أن يورغن م. أخصائي مجرّب، إذا صدقت مخيّلتي، بالاضافة إلى كونه ذكيّاً. وذات يوم، وبعد قراءة التقرير اليومي السابع والثلاثين بعد الثلاث مئة، لا بدّ أن ينتابه الهلع إزاء بطلان تصرّفاته، فلو سأل نفسه بعد تصفّحه هذه الملفّات كلّها، وبعد أن قرأ سطراً من هنا وملخّصاً من هناك، أو ربّما تقرير محادثة من هنالك، عمّا بات يعرفه عن هذا الشخص ولم يكن يعرفه من قبل، فلا بدّ أنّه سيخلص إلى الاعتراف بصدق: لا شيء. وإذا واصل سؤاله عمّا حظي به بعد كلّ هذا الجهد فبإمكانه أن يعترف لنفسه مرّة أخرى: لا شيء.

سوى أني كنتُ أعرف أكثر مما يعرف بهذا الشأن. لقد حظي بالكثير، هذا الإنسان الطيّب، الكثير حقاً، غير أنّه ما كان بوسعه أن يعرف ماذا، لأنّ ما حظيَ به، لم يسمعه وشاته في تنصّتهم ولم تحفظه

شرائط التسجيل، مصنوعٌ من مادّة دقيقة ليست في متناولهم ولا تقدر حتّى أضيق خروم الشبكة على التقاطه، وعندما كنت أنا نفسي أتساءل عمّا قد يكونه هذا «الشيء» لم أكن أعثر على اسم له. وهكذا حانقةً من نفسي عبرت موقف السيّارات دون أن أوافق نفسي على ما قد أفعله الآن، وتوجّهت مباشرةً نحو السيارة ذات اللون الأخضر الكامد (بلى، كانوا لا يزالون هناك، فما الذي تخيّلته إذن؟)، كانت الساعة الحادية عشرة وخمس عشرة دقيقة، ومررت لصق السيّارة واستطعت أن أباغت السادة الفتيان الثلاثة أثناء تناولهم طعام الفطور. ذلك الجالس خلف المقود كان يضع علبة الساندويش على ركبتيه، والآخر الذي بجانبه كان يقضم تفّاحة أما الثالث فقد كان على المقعد الخلفي يكرع باسترخاء رائع الليموناضة من عنق القنينة. لم يشرق بما يملأ فمه حين ظهر وجهي أمام عينيه، بل تابع الشرب ببرود، إلّا أن الثلاثة اتخذوا في نفس الوقت، كأنهم يستجيبون لأمر فوري، سُحنةَ المُستغلق النظرات والعيون الكابية. جائز، قلتُ في سرّي وقد هممتُ، بفعل العادة، باجتياز الموقف في اتجاه علبة البريد، كأنّ لديّ ما أضعه فيها، حتّى أني هممتُ برفع يدي لكي أضع الرسالة الموهومة ـ من الجائز، في آخر الأمر، أن يكونوا قد تلقّوا تدريباً خاصاً في معاهدهم على التمرّس بهذه النظرات الكابية. فلا بدّ أنهم يتلقّون دروساً في بعض الأمور العملية إلى جانب مُقرّر العلوم الاجتماعية. ومن الجائز، في آخر الأمر، أن يكون في برنامج تدريبهم للسنة الثانية حصّة اسبوعيّة حول: التدريب على النظرات الكابية.

وماذا لو لم يكن يورغن م. بل أحداً سواه؟ أعرف هذا الصوت. عِمْ صباحاً يا رقيبي الذاتي العزيز، لم أسمعك منذ بعض الوقت. إذن من عساه يكون في رأيك، إن لم يكن يورغن م.؟ ـ موظف ليست له نوايا مُسبقة ولا يعرفك من قبل. ـ لكان هذا ما أفضّله ـ تفضلين، يا

لها من أفكار تراودك، أنت. ـ في آخر الأمر، أحدٌ ما لا غرضَ شخصِياً له بشأني، ولا يريد أن يبرهن لي على شيء. ولا يطمع في أن يحتلّ موقعي في المضمار الذي أعمل فيه.

ماذا، يورغن م.؟ هيّا، عودي إلى رشدك!

كانت تجاربي قد علّمتني أنّ الحوار الثنائي الداخلي أفضل من المونولوج الداخلي المتواصل. فلفتُّ رقيبي الداخلي إذن إلى ما من شأنه أن يدفع يورغن م. إلى مثل هذا السلوك: تحرّقه لأن يثبت لي بأنّ الكاتب ليس الوحيد القادر على اكتشاف كلّ ما يتعلّق بشخصية ما ـ لأنّه، هو أيضاً، قادر على ذلك بطريقته. وأنّه، هو أيضاً، مثله في ذلك كمثل أي كاتب، قادرٌ على أن يكون ربّ شخصياته وسيّدها. ولكنْ بما أنّ شخصيّاته مخلوقة من لحم ودم وليست، كشخصيّاتي، لا توجَدُ بالفعل إلاّ على الورق، فهو السيّد الحقيقي والربّ الحقيقي.

وأنت، قال الصوت الدخيل الذي يعرف كيف يكون فظّاً، تريدين إذن أن تخوضي المنافسة معه؟ ترغبين في رفع التحدّي وأن تُريه فعلاً من هو السيّد؟ لكنّه فاز، ومنذ البداية، يورغن داهيتك العزيز.

إذن ماذا تراني أفعل، سألتُ نفسي فيما كنتُ أفتح صندوق البريد عند المدخل وأتناول منه الرسائل والصحف، ماذا بوسعي أن أفعل. السلالم، ومرآة البهو التي كانت لا تزال سليمة من الكسر. كنتُ شاحبة، ولكن لا بأسَ عليَّ، نقصٌ في الهواء هذا كلّ ما في الأمر، وعندها فقط سمعت الصوت يتمنى لي مزيداً من المتعة في القرون الوسطى فوصفته بأنّه سفيه. وفي الواقع، ألم يكن في منظر الشاب شارب الليموناضة هناك في الأسفل، شيء ما مؤثر؟ ـ لا داعي لأن نرى المؤثر في ما هو مجرّد من الكرامة ـ آه! حسنٌ، هناك أيضاً ما يتعلق

بالكرامة؟ ـ أيضاً؟ ولكنّها ليست سوى البداية.

ولكن مَن قال لنا ما هي الكرامة؟

رحت أقرأ رسائلي بعد المقدّمات الإجرائية المعتادة. بعد التثبّت من أسماء مرسليها خشية أن يكون فيها ما يكدّرني. وبعد أن وضعتها تحت أنوار المصباح مباشرةً ليظهر لمعانُ طرفها اللاصق والذي يعود بلا ريب إلى كونها فتحت أوّلاً ثمّ أعيد لصقها. كان نادراً ما يحدث في الآونة الأخيرة أن تكون أطراف الظرف اللاصقة غير مستوية بشكل لافت، ولم يحدث إلا فيما ندر أن وجدت الرسالة في الداخل ملتصقة بباطن الظرف: إذ لا بدّ أنهم كانوا يحرصون على تجنّب مثل هذه الهفوات. ففي مكانٍ ما لا بدّ أن يكون هناك منزل كبير ـ ولا حاجة بالطبع لأن يكون مخفياً ـ (أو ربّما منازل أقل اتساعاً موزّعةً على الأحياء؟) يصل إليه البريد بعرباتٍ محمّلة، يوماً بعد يوم، فيُفرز على بساطٍ نقّال بأيدي نساء حاذقة، ويتمّ انتقاء بعضه، وفق معايير تفوق إدراكنا، ويرسل إلى طبقات أخرى حيث تتولّى نساء أخريات فتح الرسائل بواسطة بخار الماء ـ أم أن هناك وسائل أخرى أكثر فعالية باتت تستخدم الآن؟ ـ برويّة وأناة، وينقلنها إلى الحرز الحريز حيث يستخدم زملاء لهنّ من الخبراء آلات النسخ الكهربائية التي كانت لا تزال غير متوفّرة في مكتباتنا العامّة وفي دور النشر. جيش من المتعاونين لا تأتي الصحف على ذكر مآثره على الاطلاق. جيش لم يُكرّس له عيد سنوي على غرار عمال المناجم والمدرسين أو أعضاء الجسم الطبّي. حشدٌ يتعاظمُ عديده باستمرار ويرضخ لظروف عمله في الظلّ. علقت بذهني عبارة «عدد الظلّ» فدوّنتها على ورقة صغيرة. إن نشاط فئات لا يُستهان بها من الأهلين يختفي تحت جُنح «عدد الظلّ». ورأيت حشوداً من الرجال والنساء تتوغّل في الظلال العميقة. وبدا لي

أنّهم لا يُحسدون على مصيرهم.

رميتُ بالصحف جانباً بعد أن ألقيت نظرة عاجلة على العناوين الرئيسية. وكانت هناك ثلاث رسائل لم أفتحها بعد. كنتُ أعرف مُرسِليها وإن كانت إحداها لا تحمل لا إسمَ المرسل ولا الطابع البريدي: فالمرسل هو شاعر شاب اعتاد أن يضع رسائله بنفسه في صندوق بريدي. لم أكن قد تعرّفت به بعد. ويبدو لي من خلال قصائده ـ والأخيرة منها كتبها في مخيّم تأهيل عسكري ـ أنّه فتى صامت. رقيق العود، له عينان زرقاوان ناعمتان، وأنّه كان يشعر بعذاب كبير دون أن يكون قادراً على مقاومته ولا يربطه بالحياة إلّا انكبابهً على تأليف القصائد. كنتُ أقرأ قصائد ذلك الفتى على مضض لأنني كنت عاجزة عن مساعدته. فأكتب له بمراوغة وأشعر أحياناً بالسخط عليه وبسخط أكبر على نفسي أيضاً. كان في سنّ إبني وكنتُ أحسبُ أنني قادرة على مصارحته بما ينتظره. إنّهم يهرعون صوب هلاكهم. فالسادة الذين يقفون أمام بابي، لن يتورّعوا من كسر بابه ـ هو ـ عنوةً ودون اللجوء إلى أي شكليّات مسبقة. ذلك هو الفرق بين وضعينا ـ وهو فرق حاسم. هوّة. فهل أتعمّد القفز؟

نصل أخيراً إلى الأسئلة الحقيقية، أنبأني الصوت العتيد. يبدو أننا نتعرّف إليها لأنّها تسبّب انشراحاً ما فضلاً عن الألم الذي يرافقها.

مرّة أخرى يتضح أن السيّد أعلمُ ـ كلّ ـ شيء يعرفُ بهذا الشأن أكثر مما يعرفه أيّ أحد آخر.

وسألني عمّا إذا كنتُ لا أشعر أحياناً بأنّ حاجتي لمثل هذه الأسئلة أشبه بحاجتي لمخدّر؟

وماذا لو كان صحيحاً؟ يبقى أن الأمر يختلف اليوم.

هنا أيضاً، زعم شريكي أنّه أعلم بذلك. لنقُل أنّه أحد أيامك الرديئة، قال. فطلبت منه ألّا يحشر أنفه في أموري. ـ حسناً، حسناً. فآخر الأمر هو لم يُوجد أصلاً ليلعب معي دور القاضي. ـ لماذا وُجد إذن؟ ليلعب دور المُرافِق، وذلك كان جوابه المقتضب الذي ما كان ليثير لديّ سوى هذا التعليق الساخر: دور المرافق الشخصي. ولم يكن لهذا الإيحاء أثرٌ عليه لا سلباً ولا إيجاباً. وحانقةً أردت أن أعرف من الذي أوجده في موضعه وبلا انفعال أجاب: أنت نفسك، يا أختي. لو تعود بك الذاكرةُ قليلاً.

أنا نفسي. انقضت برهاتٌ طويلة قبل أن أفطن لمعنى هاتين الكلمتين. أنا نفسي. مَنْ عساه يكون. أيٌّ مِنَ الكائنات العديدة التي تتقوّم بها هذه «الأنا نفسي». ذلك الذي يريد أن يعرف؟ ذلك الذي يودُّ التزام جانب الاحتراس؟ أو ذلك الكائن الثالث الذي كان لا يزال تراوده الرغبة في الانقياد لنفس العصا التي تقود أولئك السادة الفتيان عند بابي؟ هيه! يا صاحبي: أيّاً من الثلاثة تختار؟ سكت مرافقي مغيظاً، ولكن دون أن يُفحم. وهذا ما كنتُ احتاجه: القدرة على الاعتقاد بأني سأفلح ذات يوم بالانفصال عن هذا الأنا الثالث وألفُظُه إلى خارج كياني. والاعتقاد بأنني أريد ذلك فعلاً. وبأنني، مع مرور الوقت، سيكون احتمال أولئك السادة الفتيان عند الباب أسهل عندي من مكابدة ذلك الشخص الثالث في داخلي.

ما السبب في ذلك؟ ولماذا أصبحت خياراتي التي أجدني أمامها منذ بعض الوقت تقتصر على الاختيار بين السيّء والأسوأ. ألأنّ وجود أولئك السادة عند الباب يمنحنا نظرةً أشد نفاذاً إلى الأشياء؟

مناورة إلهاء. كان عليّ الآن أن أفتح الرسالة الثانية التي وصلتني من أحد أصدقائي المقرّبين، بل من بين أكثرهم قرباً. ويُفترض أنّ

هذا الصديق، استناداً إلى تلميحات صديق آخر، قد أصبح ومنذ زمن بعيد أحد المتعاونين الأوفياء في المنظمة وأنّه كُلّف بالتجسس عليّ. ولو كان ما يُلمّح إليه صحيحاً لكان بإمكانهم الاستغناء عن مراقبة البريد والهاتف وعن أجهزة التنصّت والسادة الفتيان الواقفين تحت النافذة: فبإمكان هذا الصديق أن يتفوّق على كافة هذه الوسائل. ولكان في استطاعة يورغن م. أن يرمي في سلّة المهملات كلّ التقارير الأخرى وشرائط التسجيل، فلا يحتفظ في ملفّه إلاّ بتقارير صديقي. ليس لأنّها قد تشكل خطراً عليّ في منطق السلطات. وإنما بالمعنى الأعمق لأنها أقصى ما قد يتهدّدني من أخطار. بالطبع: من شأن يورغن م. أن يستمتع بأكثر خواطري حميمية. ولكنّ الأدهى أنه يصبح من المستحيل عندها أن يؤمّن جانب أيّ شخص مهما كان، ولن يكون ذلك الميل نحو الجانب المعتم من الحياة، والذي كان يراودني بقوّةٍ مجدّداً، إلا أقوى، بل وأشدّ اغواءً وربما لا يُقاوم، وعندئذٍ لا يعود ممكناً أن يُسمى ما أُحسّني مشدودة إليه «بالحياة». ولكن بماذا يُسمّى ما لم يُعْد حياة؟

لا. لم أكن أرغب عندها في قراءة تلك الرسالة.

حسناً، هيّا إذن. لنستعرض الأمور، أحدها تلو الآخر. وإيّاكِ والهلع.

أما زالوا هناك؟

إنهم هناك، اليوم أيضاً سيمكثون هناك، وتعرفين ذلك جيداً.

ما جدوى مكوثهم هناك. إذا كان يخبرهم بكلّ شيء؟

حسناً، تريّثي قليلاً. قد يكون العناد من الخصال الجميلة ولكنّ برود الأعصاب أجدى. إذن: نأخذ صديقنا على سبيل المثال.

ولنفترض أنّه مُجبر على تنفيذ ما يحلو لهم.

مجبرٌ؟

مُجبر! دائماً كبرياؤك الملعونة هذه! ما الذي كان في وسعه؟ أن يُجاهر بما يفعله؟ لكي لا يعود بإمكاننا التحدّث إليه بسذاجة؟

وغير ذلك، ماذا؟

صبراً جميلاً! مثلاً: أن يؤدّي مهمّته شكليّاً. أن لا يُخبرهم إلا بما لا يخفى عليهم بالطبع. أن لا يوفّر لهم أي دليل، لا ضدّك ولا ضدّ نفسه. اللعب على الحبال المشدودة.

بهلوان، قلتُ في سرّي اكتئاباً، كلّنا بهالين. ولكن في هذه الحال لا أريد أن يكون صديقي.

ما زلتِ وستبقين كائناً مرفّهاً. ثمّ كيف تحسبين أنّ بإمكانه التحرّر منهم، بأي طريقة وبفضل مَنْ.

ولكنْ ليس...

بالطبع. فقط بفضلك أنتِ.

وينبغي أيضاً أن يرغب هو في ذلك.

ولماذا يرفض. أنت تعرفين كلّ محطات سيرته.

كان صديقي يكتب لي من هـ.، حيث يشارك في مؤتمر، ويعبِّر لي عن مدى رغبته في أن يتناول الشاي برفقتي هنا في مطبخي وأن نسترسل معاً في نقاش لا ينتهي. وماذا لو كان كلامه هذا بمثابة تلميح خفيّ لإبلاغي بأنَّ لا أجهزة تنصّت في مطبخنا... حسناً، لا بأس. أشعر بالخجل.

جلست وراء مكتبي وكتبت رسالةً لصديقي أخبره فيها بأني أواجه مرحلة صعبة في حياتي. وأن أفكاراً تراودني تزرع الرعبَ في داخلي أنا نفسي. وعمّا قليل، عندما سنحتسي الشاي معاً في مطبخي، سيكون بإمكاننا التحدّث عنها.

مَنْ يدري، قلتُ في سرّي، ولامني مرافقي الحميم على هذا التحفّظ، فسألته: أينبغي أن أستقبله في مطبخي من دون تحفّظ، فقال: من دون تحفّظ ـ ولكنّه لن يلاحظ شيئاً. سأتظاهر بأنني طبيعية وكأن شيئاً لم يكن، فأنا أجيدُ مثل هذه الأمور. بل وسأبدي له، على نحوٍ ما، مقدار ترحيبي به.

سَكَت الصوت الداخلي العتيد، سَكت، سكت.

كان ثمة رسالة أخرى تتميّز عن مثيلاتها بظرفها المستطيل الأبيض. لم أتفحصها لأكتشف فيها ما يُثير الشبهات: فإذا كان هناك ما يُثير الشبهات بالفعل، فأنا لا أريد أن أعرفه. رسالة موجّهة من قبل جهة رسميّة. فتحت الرسالة بشرود مُستعينة بمقطع ورق. وكانت الثواني التي صرفتها في سحب الرسالة من الظرف وفتحها كافيةً لأن تراودني سلسلة من الأفكار الفريدة. بوشكين. مجلّد رسائله الذي صدر حديثاً. ومدى حنقه حين اكتشف أنّ إحدى رسائله إلى زوجته قد فتحت من قبل جهاز الرقابة القيصري على البريد. مغالاته في مشاعر الحنق: هكذا إذن حتّى تبادل الخواطر الحميمة بين زوجين لا ينجو من استباحتهم للمقدّسات! وردّ فعله الذي لا ينسجم والغضب الذي أبداه: مكث عاجزاً ولفترة طويلة عن الكتابة لزوجته. والقهقهة التي انطلقت مني، على رغمي، خلال قراءتي لهذه

الحادثة، لعلّه إحساس بالتفوّق: شعراء القرن التاسع عشر أولئك وحساسيتهم المفرطة!

منذُ متى لم أعُدْ أكتب رسائل حميمة وبلا تكلّف. ومنذُ متى أصبحت الكتابة جُهْداً أبذله بعناء. لم أكن أعرف. ومتى بدأ زمنُ رسائل «كأنّ» ـ عندما قرّرتُ أن أكتب كأنّ أحداً لا يعترض طريق الرسائل ليقرأها. كأنّي أكتبُ بصورة طبيعية وحميمية. لم أكن أعرف. كلّ ما كنت أعرفه هو أنني أصبحت عاجزة عن كتابة رسائل تلقائية وكانت صلاتي بالذين يقيمون بعيداً عني تفتر وتتفكّك. أكان ذلك يدفعني للندم؟ للإحساس بالنقمة؟ ألم يُصبح ذلك كأنّه طبيعيّ وفي مجرى الأمور؟ سيحققون أهدافهم، فكّرت في سرّي. وأيّ أهداف، لكنّهم سيفعلون.

كانت الرسالة تحملُ في أعلاها ترويسة مُهيبة، وكانت قصيرة. وكان الرجل الذي كتبها عضواً في الجهاز الذي تشير إليه الترويسة ويودّ أن يقدّم نفسه على أنّه شخصٌ مُستقيم. حتّى في تلك الأيام الصعبة كان لا يزال هناك من يحسبُ نفسه مُستقيماً، أو هذا ما كان ينبغي أن أستنتجه من رسالته، حتى في تلك الأيام الصعبة، كان لا يريد التخلي عني. لا شيء أكثر؟ قلتُ في سرّي وأنا أشعر بمزيج من الارتياح والاحباط، وأنّني جائرة بحكمي من دون شك. ففي آخر الأمر، استطاع هذا الرجل أن يكتب لي ـ وعلى ورق حكومي! ـ أنه سيكون أمراً مؤسفاً بالفعل لو لم يتوصّل إلى «تصنيفي» في برنامج نشاطات مؤسسته ـ كتب «تصنيفي» (في خانة) بين مزدوجين ليظهر لي مدى وعيه للسخرية التي تتضمنها عبارته. تراه كان يعتقد بأنني أعاني من ضائقة مالية؟ لا، لا يعتقد ذلك. ونصيحتي، تابع قوله بلباقة،

ومساهمتي بالمناسبة لن تكون إلّا مؤاتية لازدهار دكّانه ـ كتب: «دكّاني». وسيكون الأمر مؤسفاً لو لم يتوصّل إلى اقناعي في القريب العاجل. وبالمناسبة. كان يودّ أيضاً أن يحكي لي كيف جرت الأمور معه «منذ ذلك الوقت» ـ العبارة الوحيدة التي صدرت عنه بغير قصد. ولكنّي، كتب قائلاً، كنتُ أعلم جيداً أن حياة الأشرار شاقة.

صَمْتٌ، صَمْتٌ. فترة صَمْت. إذا كنتَ تحسب أنّه لا يزال قادراً على أذيّتي... في آخر الأمر لك كلّ الحقّ في أن تحسب ذلك: فبإمكانه أن يؤذيني. بإمكانه مجدّداً.

كانت تلك الرسالة تفوح بعطرِ إنكار الذات. وهذا ما كان من صميم طبعه. إلّا أنّه كتب الرسالة ليُبرهن لي على العكس. وسيحتفظ بها بعناية كوثيقة إثبات لجرأة تضامنه. لكنّه: لن يدعوني. ولن يصنّفني (في خانة) برنامج نشاطاته. وسيرفق اللائحة التي تمنعه من دعوتي والتي يرد فيها اسمي أيضاً، بالرسالة التي وصلتني، وفي الملفّ إيّاه.

والقصد؟ لنضع هذا الأمر جانباً.

للمرّة الثانية في ذلك النهار، علا رنينُ الهاتف. صوت امرأة. لماذا تبدو منفعلة إلى هذا الحدّ، سألتُ في سرّي حتى قبل أن أعرف مَنْ هي. كانت على هذا القدر من الاضطراب لأنّها تخشى بعض المضاعفات التي قد تواجه سهرتها. أدركتُ أنها الزميلة ك. من دار الثقافة والتي، لدهشتي الكبيرة، كانت دعتني لقراءة بعض أعمالي في أمسية عامة ذلك المساء، وتريد أن تعرف إذا كنتُ أستطيع الحضور قبل الموعد بنصف ساعة.

بالتأكيد، قلتُ، ولكن لماذا؟

لتجنّب أي حادث مكدّر.

قالت «لتجنّب». تلك اللغة، تلك النبرة التي تقزّزني. أي نوع من الحوادث المكدّرة، سألت بنبرة مراوغة.

ندمت السيّدة ك. على العبارة التي استخدمتها وتصنّعت نبرة مطمئنة. آه! لا شيء محدّد. هكذا، بصفة عامة.

كيف الإجابة على هذا القول سوى أن أقول: حسناً. سأصل قبل الموعد. ثمّ كان عليّ أن أقطع المخابرة. فقد أحسستُ بأن الأمر مريب.

كانت الساعة قد جاوزت الثانية عشرة ظهراً. أما زالوا هناك؟

كانوا هناك.

إذن لنأكل شيئاً. فالأجدر في أيام مماثلة أن لا يكون المرءُ وحيداً.

وحيدة؟ كنتُ لا أستطيع أن أفكّر أو أن أتفوّه بشيء دون أن تنصبَّ علي صواعق مراقبي. إن لم تكفّي عن الانتحاب والاشفاق على نفسك...

حسناً، حسناً. ففي آخر الأمر، أنا أرى أنّك محقّ. سأستقبل من تعرفه جيداً في مطبخي. ولن أنسى ما راودني بشأنه اليوم. سوى أني لن أصدّقه إلاّ عندما يقول لي إنه لن يفرّط بي. ومن يستطيع أن ينجّيه مما هو فيه سوى الانسان الذي يتشبّث بصداقته. ـ هذا إذا أراد فعلاً أن ينجو من ورطته. ـ إذا كان متورطاً بالفعل. ـ فلا بدّ أن يأتي أحد ما ويساعده. فهل نسيت ما لديهم من وسائل للضغط عليه؟ ـ آه! إذهبي إلى الجحيم أنتِ وقيمك المتزمتة!

في نهاية المطاف ربّما لا نكون أُبتلينا بأحد أسوأ أيامنا.

سخّنت مرق السُلاّقة المتبقي من وجبة البارحة، وشرعت بتناول الطعام ساهمةً، مُنصتةً إلى الأنباء التي سمعتها عند الصباح. كانت تتصاعد من الفناء الخارجي أصداء صراخ الأولاد وتجيبها من صوب الطبقة الخامسة في العمارة المجاورة أنغامُ موسيقى عصرية، ولن تلبث السيّدة ج. أن تخرج بطاقيّتها الخضراء لتعبّر عن سخطها إزاء هذا الضجيج. وهذا ما فعلته.

وجدتني واقفةً مجدّداً بقرب طاولة المكتب، ولكني تجنبتُ النظر عبر النافذة. (كانوا لا يزالون هناك). فجلستُ ورحتُ أدوّن على صفحات مفكرتي الخضراء كلّ الملاحظات التي أهملتُ تدوينها خلال الأيام الماضية. ذات يوم سأكون جالسةً في حُجرةٍ - أتخيّلها مُتقشفة، وفيها طاولة مكتب عادية - وستطرح عليّ أسئلة. أسئلة متفاوتة الغرض وبعضها تافه. سوى أني كنتُ عقدت العزم على رفض الاجابة على أي سؤال مهماكان، وفي نيّتي أن أتشبّث بما عزمت عليه (أوه! يا لمخيّلتك يا أخيّتي!). ثمّ بعد انقضاء ساعة أو ساعتين أو عشرين ساعة - ألا يُحكى عن جلسات استجواب تستمر لأيام كاملة مع بعض الاستراحات القصيرة؟ -، سيتناول الرجل الذي يتولّى استجوابي هذه المفكرة الخضراء السميكة والتي دوّنت فيها بصراحة ما فعلته اليوم وأمس وأمس الأول، ما قرأته وما سمعته ومَنْ قابلتُ وحتى أحوال الطقس السائدة. حسناً، سيقول عندها مستجوبي - وسيحافظ على تهذيبه الشديد حتى الأسئلة من الدرجة الثالثة أو الرابعة ولن يُصبح فظّاً، وبصورة مباغتة، إلا حين يصل إلى الأسئلة من الدرجة الخامسة، ولكنّي سأكون مهيّأة لهذا الأمر وسأستمر في عنادي حيال فظاظته أيضاً، وربّما تكون مواجهتي لفظاظته أسهل علي من

مواجهتي لتهذيبه (يا أخيّتي! يا أخيّتي. . .): حسناً، سيقول. لنتكلّم بوضوح. وسيقرأ جواباً على كلّ سؤال يطرحه بعضاً ممّا دونته في مفكرتي، وبالعبارات التي استخدمتها أنا نفسي، وبذلك يحظى بالأجوبة التي كنتُ كتمتها بكبرياء من قبل. والآن، يا سيد أعلمُ ـ كلّ ـ شيء، أبإمكانك أن تشرح لي لماذا أستمرّ، برغم كل شيء، في تدوين كلّ هذه الأمور في مفكرتي، إن لم يكن ما أفعله إنّما بدافع الكبرياء والتهوّر والغرور؟

لأنّك تعتقدين: لن يجرؤوا. صَمْتٌ.

كان عليّ الآن أن أقترب من الهاتف، أن أطلب الرقم وأصغي. آمل ألّا أكون أيقظتك، قلت بنبرة لا تخلو من الاحساس بالذنب. لا، قالت ابنتي الصغرى. بل كانت تهمّ بتناول طعام الفطور. ـ ماذا؟ ـ كانت اللائحة طويلة وقُبِلَتْ: إذن هذا ما تسميه «طعام الفطور». قد يجد آخرون في هذا ما يكفيهم زادَ يومين. ـ بلى، ولكن من جهتي أنا، فلم أتناول شيئاً منذ يومين. ـ هنا المصيبة. ـ سألتني فأجبتها عن أحوال والدها. ـ وماذا عن أحوالك أنتِ، يا أميمتي؟(*) ـ أوه، مدهشة، قلت فقالت: رائع كبداية(**)، فرجوتها عندئذٍ أن تستخدم لغة يفهمها الجميع فرفضت بغيظ. كما يحلو لك يا آنسة، قلت. ولكن كيف تقضين نهاراتك المملّة؟ ـ أوه! يا عزيزتي(*)! قالت ابنتي الصغرى. إيّاكِ والفضول! ـ لا، قولي الآن بجدّ: أتنامين كفاية. ـ أجل يا سيّدي(***). ـ أتخرجين لتنشّق الهواء الطلق

(*) بالانكليزية في النصّ.

(**) باللاتينية في النصّ.

(***) بالانكليزية في النصّ، عبارة تُستخدم لمراعاة أصول التخاطب بين الرؤساء والمرؤوسين في قطاعات الجيش. (م.ع).

أحياناً. ـ أجل يا سيّدي. ـ حسناً، اسمعي جيداً، قلتُ لها، أودّ أن أطلعك على أمر ما: إذا حدث ذات يوم أن قطعت صلتي بك بسبب الفظاظة العقلية فستجدين نفسك عند الجدول وستذرفين دموعاً حارة.

ـ يا سيّدة(*)، قالت ابنتي الصغرى، مهلاً، فسأحمل كلامك هذا على محمل الجدّ الخالص.

أقفلنا الخطّ في اللحظة نفسها كلٌّ من جهته. ومع ذلك كنتُ أشعر بأنني في حالة أفضل. نظرتُ عبر النافذة. هكذا إذن، كانوا لا يزالون هناك. لمَ لا، في آخر الأمر. أمّا أنا فكنتُ أرغب في قيلولة قصيرة. أسدلت الستائر في غرفة النوم واستلقيتُ على السرير. فقد كانت تلك اللحظات من أوقات الارتياح العميق أثناء النهار. فما من أحد غريب وما من نظرة غريبة وحتى ربّما، ما من اذن غريبة تتبعني إلى تلك الحجرة. وكنت أتلذّذ بتلك المتعة التي لا توصف بأن أكون وحيدة لا أخضع للمراقبة ولا أشعر بتطلّب تجاه نفسي. أن لا أفكر، أن لا أعمل. أن لا تكون لديّ رغبة في اكتشاف أي شيء أو المعرفة بأي شيء. أن أستلقي في دعَةٍ على ظهري، وأغمض عينيّ وأتنفّس. أن أتنفس. أنا أتنفس، أنا لا أفكّر. أنا هادئة.

رأت بصيرتي أفقاً عالياً دائرياً وباهتاً فوق حلبة معتمة. أهي خشبة مسرح؟ كانت أفكاري كلّها ترتدّ نحو هذا الأفق، فتتطاير، طيفيّة، كخفافيش هائلة وثقيلة. تكاد تصل إليه. عبثٌ. لن تصل إلى نهاية المطاف. ستحطّم رؤوسها. الأفق رخامٌ. ألا ترينه. كانت تعودُ إليّ

(*) بالانكليزية في النصّ.

طائعةً مصفقة بأجنحتها. ليس على هذا النحو سيكون بمقدوري أن أتخلّص منها.

كيف بإمكان واحدنا أن يتخلّص من أفكاره. يتخلّص منها بأن يفكّرها. يفكّرها ويفكّرها مجدداً. باجترارها. باستنفادها إلى آخرها. لو أن ثمة جهازاً من شأنه أن يركّز مَحرق كلّ ما تبقّى من الأمل في العالم لكي يصوّبه، كشعاع لايزر، على هذا الأفق الحجري ليذوّبه، ليثقبه.

ها أنت تفكّرين مثلهم. أجهزة، أشعّة، عنف، وها أنت تُدمين في المستقبل نزرَ السلطة الذي لهم في الحاضر. وبهذه الطريقة سينالون منك.

أتحسبُ أنني أجهل هذا الأمر؟ أتظنُّ أنني أحسب نفسي مختلفةً تماماً؟ النقاء، الحقيقة، اللطفُ والحبّ؟ أتحسبُ أنني لا أدرك مرادهم؟ بل أدركه. يريدون أن أصبح مثلهم، لأنها البهجة الوحيدة المتبقية لهم في حياتهم البائسة: أن يجعلوا الآخرين على صورتهم هم. أتحسب أنني لا أستشعر وجودهم من حولي يتلمّسون بحثاً عن نقطة ضعفي التي من خلالها سيُتاح لهم أن يتسلّلوا إلى كياني؟ أعرف موضع هذه النقطة. ولكنّي لا أعترف بها لأحد، حتى لَكَ، وحتّى في أفكاري أنا.

كيف تتخيّلين مُستقبلك.

عاودت الخفافيش الطيفية الهائلة تحويمها مجدّداً، سربٌ مُقلِقٌ.

ألا تعلم، حقاً، أنّه ينبغي أحياناً تجنّب بعض العبارات؟ لئلا يتسرب إليك الضعف؟ لئلا تلين ارادتك؟

هكذا إذن لن يتعلّق الأمر في المستقبل بغير الصلابة.

عكس الليّن ليس الصَلْب. عكسُ الليّن العنيد، المتماسك.

مذهل. ولكن في أيٍّ من جيوبك تخفين خوفك؟

ذرارة خوفي؟ عليّ أن أحيا معها. ومَنْ لا يلائمه واقع الحال ليس عليه سوى الرحيل. ومَنْ يرغب في إخافتي برميه رأسي بتلك الصور ـ منذ دقيقة كان الأفق الدائري قد تلاشى، وكنتُ أرى حجرات مسيّجة ـ مَنْ يرغب في القضاء علي بواسطة تلك الرؤى، ليرحل هو أيضاً. وبأسرع وقت ممكن.

آه! آه! إذا كانت عملية طرد ـ فليكن.

ثمَّ، برغم ذلك، أغفيتُ. وآخر ما رأيته من صُوَر كانت تفاصيل واضحة الجنبات لجسدٍ مذكّر أعرفه، مشاهد مضاجعة تتردّد بقسوةٍ كانت لتذهلني في حالة اليقظة. حلمٌ يُريني بلا مواربة كيف يُثقبُ غشاء الجنين، وكنت أسمع تلك الكلمات الملفوظة بنبرة ساخرة: مولودة تحت طالع حسن! وفطنتُ إلى المعنى عند اليقظة، ولكن لماذا النبرة الساخرة؟

وما جدوى تلك الجراح التي ينبغي أن يسبّبها المرء لذاته.

ما من جواب. كانت عملية الطرد لا تزال سارية. عندئذ ارتديت ملابسي وصنعت لنفسي قهوة «مركّزة» وجلست وراء طاولة العمل، طاولة التعذيب. أما زالوا هناك؟ ما عادوا هناك. لقد غادرت السيارة ذات اللون الأخضر الكابي. لقد تخلوا عن الأمر. إقتنعوا في آخر الأمر بأنّ...

على مقربة، مسافة أربعة مواضع خالية لسيّارات، نحو الجهة اليُسرى، كان يوجد سيّارة بيضاء وبداخلها شخصان. كما ينبغي تماماً.

كانت الساعة الثالثة بعد الظهر.

كان باستطاعتي أن أرى من خلال النافذة ذات الخرجة لجهة اليمين، منظراً جانبياً لفريدرشتراس حتّى محطة المترو، ومن خلال النافذة، لجهة اليسار، حتى أورانينبرغر شتراس. وفي الاتجاهين ازدحام الناس. آلاف من مواطنيّ الذين لا يرتابون بشيء ويمرون ساعة بعد ساعة في الوسط بيني وبين السيارة البيضاء في الجهة المقابلة، يعودون إلى بيوتهم أو يذهبون إلى أعمالهم أو إلى مواعيد غرامية أو مواعيد عمل. والذين ينقلون معهم، حيثما حلّوا، الحياة الطبيعية التي تلازمهم.

كنتُ أحافظ على كبريائي ما لم أضع نفسي في حالة واحدٍ منهم، وكان عليّ أن أتعلّم الكثير بعد. أنا أم هم؟ وكنتُ أحسبُ أنّ شعوري بأنني غريبة والذي كان يفصلني عن الحشد هو نفسه الشعور الذي يفصل أيضاً الحشد عن ذاته.

لم أكن أفكّر بهذه الطريقة مِنْ قبل، ولكن بدا لي أنّ الوقت قد حان للتفكير بمثل هذه الطريقة وبطرقٍ أخرى أيضاً. طرق أخرى ومختلفة. الحشد، ولكنْ ليس دوماً كجماهير معصومة، كحكم، كبنية فوقية. ككثرةٍ ذات حُكم حاسم. حشدٌ لا ينبغي أن أزدريه أو أسيء إليه أو أتجاهله، كجماهير واسعة كانت دائماً، في مواقف الريبة، على حقّ. وها إنها تمرّ بشبّاكي، لا تعلم شيئاً وليست على خطأ أو

صواب، لأنّها من رؤى الذهن. أما كان بالمستطاع القول: ليس المهمّ الحشد بل الأفراد الذين يتقوّم بهم، الذين يقدرون على قول نعم أو لا، وعلى رفع أيديهم بحكم العادة أو استنكافهم، على رمي أوّل حجر تلبية لأمر أو عدم القبول بالعقاب. ألا يحتلّ كلّ واحدٍ من بين هذا الحشد مكانته الخاصة بصفته الفردية، مثلاً تلك الفتاة التي كانت تتسلّل برشاقة بين السيارة البيضاء والسيّارة التي بجانبها ذات اللون الأصفر المائل إلى القتامة، والتي تعبر الآن مسكبة العشب بين الموقف والرصيف، والتي توقّفت بانتظار أن تضاء إشارة المشاة لتعبر الطريق بخطى واثقة. فتاة مثل آلافٍ غيرها، متوسطة القامة، ليست نحيلة أو سمينة، لها شعرٌ داكن قصير جداً ووجه مُسْمرّ. سترة نصفية خضراء، وحقيبة تتدلّى من كتفها.

كان يكفي أن تركّز انتباهها على شخص ما للتخلص من خوفها.

كان عليّ أن أهيىء نفسي، أن أقفل حقيبة هـ. وأنتعل حذائي، فبعد أقلّ من نصف ساعة تبدأ مواقيت الزيارة في المستشفى. قرع الباب. يا لها من مصادفة سيئة، قلبتُ لأموّه هلعي. من عساه يكون؟ اليوم؟ ويقرع بابي أنا؟ الأجدر ألّا أفتح. تسلّلت بصمت إلى الرواق، وأصغيت. هل أثبّت السلسلة؟ عبث. هكذا تبدأ الأمور عادة.

في البداية حسبتُ أنّه مجرّد وهمٍ سمَعي. لم يكن قارع الباب سوى الفتاة التي رأيتها منذ قليل تعبر الشارع. شعر داكن وقصير جداً. وجه أسمر. سترة نصفية وحقيبة ذات حمّالة.

مَن بعث بها إليّ؟ نظرت إلي وبدأت أحسّ بالخجل. وسرعان ما دعوتها بلهجة طبيعية إلى الدخول. ومع دخول تلك الفتاة إلى بيتي كأنّ ذاتاً أخرى لي، قريبة منّي وغريبة في وقتٍ معاً، قد جاوزت

العتبة. لم يكن من اللائق أن يُطلب منها ـ كم كانت فتيّة! عشرون؟ اثنتان وعشرون سنة؟ ـ خَلْعَ سترتها. عرّفت الفتاة عن نفسها وذكرني اسمها بشيء ما غامض، وانتابني شعور قوي بأن تلك الفتاة لن تغادر شقتي بعد اليوم. لم أنزع خط الهاتف حين مررتُ بجانبه، وكان عليّ أن أفعل تحسُّباً، ولكني آثرت أن أواجه مخاطر الكلام الذي قد تتفوه به الفتاة في حجرتي، أمام طاولتي، بل ربما أمام أجهزة التنصت الجاهزة، وجعلت تتكلّم من تلقائها، لأنها جاءت لتتكلم، أو هذا ما أدركته على الفور.

بعد عَدَد من الأسئلة الموجزة والأجوبة، اتضح أن اسم تلك الفتاة كان قد تردّد بالفعل في إطار قضية شهدتها إحدى الجامعات تتعلّق بأعمال وشاية ومحاولات ابتزاز وملاحقات، وأنّها هي التي طردت من الجامعة آنذاك لأنّها لم تكن من النوع الذي يرضخ للابتزاز.

بلى، بلى، تذكّرت تلك الحكاية التي سمعت أقاويل حولها منذ وقت ـ منذ كم من الوقت؟ منذ سنة؟ سنتين؟ بلى. ولكنْ، قالت الفتاة عندها، كأنها تقول ذلك عَرَضاً ومن غير أدنى نيّة للتفاخر، بعد ذلك واجهت قضية ثانية وُضعت على أثرها في السجن لمدة عام، ولذلك لم يكن في استطاعتها أن تأتي لزيارتي من قبل. كأننا كنا تواعدنا على اللقاء منذ سنتين. وكان ما توقّعته منذ دخول الفتاة قد أصبح أخيراً المناخ الفعلي الذي يحتضن لقاءنا. وكانت العبارة التي استخدمتها «سجن» هي التي تلقي بظلال من الريبة على ألفتنا. قلّبت الفتاة حاجياتها داخل الحقيبة بحثاً عن شيء ما ولم تلبث أن سحبت منه عدداً من الأوراق المكتوبة بخط اليد، وكانت تلك الأوراق هي السبب في مجيئها إليّ، فقرأت الأوراق على الفور برغم ما

قلته لها في البداية إنني كنتُ على وشك المغادرة.

بعد فراغي من قراءة ذلك النصّ القصير، سألت الفتاة إذا اطلع عليه آخرون. فقط شقيقتها وصديق لها وزوجها.

عندئذ نهضت لأنزع خط الهاتف. لم أكن أودّ أن أدير المذياع فلا بد أن الفتاة لا تنظر إليّ كشخص كثير الوساوس أو شديد الحماس. هكذا إذن، هي متزوجة. أجل. وقد ساندها زوجها، قالت، ولكنّه لا يهتمّ بما تفعله.

في أوقات مثل تلك، خطرت لي هذه الفكـرة بصورة مباغتة، ومفادها أنّ كلّ نقاط ضعفنا تستيقظ فينا أو أن كل مكامن قوّتنا تستحيل إلى مكامن ضعف. ولم يكن من عادتي أن أصف النصّ الجيّد بالسيء أو أن أبخل بالتشجيع على نص جيد. فقلت لها إن ما كتبته جيّد وإنه مُنصف. وكلّ عبـارة فيه صحيحة. ولا ينبغي أن تطلـع أحداً عليه، لأنّ هذه الصفحات القليلة قد تعيدها إلى السجن.

ذابت الفتاة بهجة وهدأت واسترسلت في الكلام. فقلت في سرّي: ها قد بدأنا. ولا بدّ أن الفتيان ينهمكون بوضع تقاريرهم. كانت الفتاة تتحدّث عن القسوة التي شهدتها في حياتها، كانت تريد أن تسرّ بكلّ مكنونات قلبها، ولكن إلى أين قد يفضي بنا ذلك، فكان علي أنْ أقاطعها إذ كيف لي أن أتحمّل خروجها على الأثر إلى الشارع في مثل هذه الحال من الثقة المفرطة، وكان عليّ أن أسألها عمّا كابدته في السجن، وأن أسمع منها بأنّ أسوأ ما فيه هو البرد. والوتائر المتسارعة في صناعة الجوارب. والأوجاع الكلويّة. إذ لم يكن السجن مجهّزاً بوسائل التدفئة.

كان كلّ هذا يحدث في حُجرتي حَسَنة التدفئة، وأمامي أنا، بجوربيّ

اللذين يلفّان ساقيّ. كان عليّ الآن أن أتوسّل ببعض الترهيب لإخافة الفتاة، هذا إذا استطعت. وكان عليّ أن أقول إنّ الكتّاب من ذوي المواهب العالية قد نال منهم العفن في السجون الألمانية بالعشرات، وإنّ كلّ البهتان في قول قائل بأن الكاتب الموهوب يُقاوم البرد والإذلال والمهانة بتصميم يفوق مقاومة من ليس له موهبة. وقلتُ إنّ الناس سيودّون ولو بعد عشرة أعوام قراءة عبارات مماثلة لما كتبته هي. وإنها، على الأخص، لا ينبغي أن تدفع نفسها إلى الهلاك مطأطأة الرأس لقلّة حذرها.

هكذا إذن، ينبغي أن أدّخر ذاتي؟ قالت الفتاة. ولكن ما الجدوى؟

ألا تحبين زوجك؟

لقد تزوّجها ليوفر لها الأمان. ساندها. وما تفعله يجعله معرّضاً للمخاطر، فهو يتولّى مَنصباً. حب؟ لا.

وهي، ألا تريد الإنجاب؟

في البداية، بلى. أما الآن فلا. هذا فضلاً عن أنهم أخطأوا في التشخيص هناك بشأن أوجاعها الكلوية فأجروا لها جراحة في الرحم.

صمت.

ثابت الفتاة إلى رشدها. لا، هي لا تريد أن تودي بنفسها إلى الهلاك. ولكنها تودّ أن تكتب عمّا هو حقيقي، بكل بساطة. وأن تناقش ما تكتبه مع آخرين. كما تفعل الآن. هنا.

خطر لي أنّ لا شيء من شأنه أن يردعها. إذ ليس بإمكاننا أن ننقذها، أن نفسدها. فلتفعل ما يتوجّب عليها وتتركنا لضميرنا. غادرت. نظرتُ إليها من خلال النافذة وهي تبتعد. عبرت الشارع،

تسلّلت بين السيارات ومرّت بمحاذاة السيارة البيضاء دون أن ترهبها نظرات السادة الفتيان الكابية، وصلت إلى الجهة المقابلة من الموقف واختفت عن أنظارهم وأنظاري.

هكذا إذن، لم أسألها عن عنوانها.

الآن، أعيد وصل خط الهاتف، وأتهيأ، أوصد الباب بالمفتاح وأغادر. لا بدّ أن مواقيت الزيارة قد بدأت في المستشفى.

كانت سيارتي مركونة على بعد سبعة مواضع من السيارة البيضاء التي لم أعِرْها أيَّ اهتمام. صعدت إلى السيّارة وأدرت المحرّك. لم تسأل الفتاة بدناءة: عمّا يبقى. ولم تسأل أيضاً عمّا سيبقى في ذاكرتها بعد أن تشيخ.

سرتُ في الطريق التي سلكتها الفتاة، ورحت أراقب الأرصفة بانتباه، حتى أني كدتُ أتسبب بحادثة اصطدام حين تراءى لي أنني ألمح رأس الفتاة ذا الشعر القصير بين الحشد ودون أن أراعي حركة السير حاولت أن أوقف السيارة بمحاذاة الرصيف، ولكنّ أصوات المنبهات خلفي أجبرتني على متابعة طريقي، فغاب الرأس الأسمر عن ناظري. ما من عنوان. يا له من عمل جميل.

بينما كنتُ أتابع طريقي مُتجنبة أي هفوة ومتقيّدة بحرفية قواعد السير، حدث شيء ما بداخلي. كأنَّ شيئاً ما اعتمل فيّ بغتةً، ونال من قدرتي على الإبصار، أو بكلام أدق، نال من كامل قدرتي على الإدراك. كنتُ لا أزال أقود السيارة، إذن لم يكن الأمر على هذا النحو: وجدتني وقد اصبحت غير قادرة على الرؤية فعلاً، كنتُ لا أبصر ما أبصره، ليس لأنّ البيوت والشوارع والناس أصبحت غير

مرئية في عيني، لا، أبداً. ما الذي يُصيبنا، سمعتُ نفسي أردّد في سرّي مراراً، وإلى ذلك كانت تعوزني الكلمات، وما زالت تعوزني اليوم. قد أقول، على سبيل الافتراض، أنَّ صلةً ما قُطعت وشائجها بيني وبين المدينة - شريطة أن يُفهم من كلمة «مدينة» كلُّ ما يصنعه الناس بعضهم بالبعض الآخر، سواء بالحُسنى أم بالأذيّة. ليس لأني خشيتُ أن أصبح مجنونة. إذ لم تكن تنتابني لا مشاعر الخوف ولا المشاعر الأخرى من أي نوع، حتى أني لم أكن على صلةٍ بذاتي، الزوج والأولاد والأخوة والأخوات، ما صلتي بهم جميعاً، كانوا مجرّد احجام متساوية في كنف نظام يكتفي بذاته. فأنا لم أكن أعرف من قبل أن الرعب الخالص والمجرّد قد يتلبّس مظاهر فقدان الإحساس. من غير عناء، خرجت من اتجاه السير وأنا أرى إلى ما أفعله بمسافةٍ ما، انعطفت إلى اليسار وسلكت الممرّ الذي يؤدي إلى المستشفى، ولم ألبث أن وجدت فُسحةً لأركن السيارة، وكأنّ الأمور تجري من تلقائها، كما أني لم أشعر بالدهشة على الاطلاق إزاء سهولة الدخول إلى مثل ذلك المبنى ذي الزوايا الحادة والذي يحتلّ مساحة كبيرة، قليل الارتفاع، كأنّه مصنوع من نماذج كرتونية، ومجهز ببئرٍ للسلّم وبكتابات مرفقة بسهامٍ تشير إلى اتجاه طبقاته المختلفة وفروع خدماته الطبية، والتي مررتُ بها بخطى واثقة ومتسارعة للوصول إلى الطبقة الثانية، إلى جناح ك ١ لأجد نفسي أمام غرفة تحمل الرقم ١٧. سوّيت ملامح وجهي بما يتلاءم ومظهر امرأة جاءت لعيادة زوجها في المستشفى، طرقتُ الباب وفتحته ودخلت مبادرة إلى تحية الشاب نزيل السرير الأول بحركة من رأسي وتقدّمت في اتجاه السرير الثاني، حريصةً على أن أراقب تصرّفاتي من بُعْد، ووجدتني أبتسم وأنحني على الوجه المستلقي فوق الوسادة وأقبّله.

كلّ هذا وأنا أراقب ما أفعله من بُعد.

سألت عمّا ينبغي أن أسأله، وتلقيتُ الأجوبة التي أعرفها، وضعت عصير الغاسول الرومي على المنضدة قرب السرير، وجمعتُ الزجاجات الفارغة والشراشف الوسخة، فعلتُ كلّ ذلك بأكبر قدر من الصدق والتلقائية، حتّى أني لم أتجنّب كلماتٍ من نوع «هاجس» و«انتظار»، لأن مَنْ لا يشعر بشيء يجد أنّ جميع الكلمات صالحةً لاستعماله. وكذلك الأمر رحتُ أواسيه أيضاً، رحتُ أسعى لمعرفة التفاصيل الدقيقة، واستعلمت عن أدق مظاهر التحسّن في حالته، عن كسور درجات الحرارة ارتفاعاً أو انخفاضاً، وكلّ تدرجات الأوجاع في حدّتها. لا، لم يكن هناك خطرٌ حقيقي على حياته، فهذا ما كنتُ واثقةً منه حتى ولو أمضيتُ نهار البارحة في حالة من القلق. وهذا ما قلته له، وكنت صادقة في ما أقول، بأنني كنت قلقة عليه، وفي اللحظة نفسها كنت أعلم أنّ هذه العبارة ستوقظ في أعماقه ريبةً لن يُعبّر عنها مباشرة. وسيكتفي بالسؤال: وفيما عدا ذلك؟ وهذا ما قاله بالضبط.

فيما عدا ذلك؟

فيما عدا ذلك؟ لا شيء بالتحديد. فالأجواء هادئة. قليل من الزوّار. الأمور جيّدة بالفعل. ماذا، لا شيء يستحق الذكر. لا، صدقاً. ونومك؟ بالطبع، رائع. لا صدّقيني. لا داعي للقلق بشأني.

لماذا لا تكفّين اليوم عن ترداد «لا، صدقاً»، قال هـ.

أنا، قلت. أنا أردّد هذا؟

في دقيقة واحدة ردّدت عبارة «لا، صدقاً» مرتين، قال هـ.

دعني وشأني، قلتُ. وكان ينبغي أن أصمت بعد تفوّهي بتلك العبارة. هيّا، انتحبي، قال هـ. بعد وقت. ودفعت الكرسي إلى

الخلف وجلست على السرير. فقال: لن تُسرّ الممرضات لما تفعلينه الآن.

كيف حالك، سألت، كأننا نعاود الكرة من جديد. الأجوبة هي نفسها على أسئلة مختلفة. كان يبدو شاحباً وفي قسماته مَلمحٌ كنت أجهله. بطرف اصبعي تتبعت الخطوط التي أعرفها. كآن في حالة الخطر. وكان عليّ طوال فترة الصباح أمس أن أطرد من مخيّلتي الاحتمال المفزع لحياةٍ من دونه. لقد جرى كل شيء على خير ما يرام، قلتُ. كل شيء على خير ما يرام.

بلى؟

لا، صدقاً.

سأحكي لك كل شيء فيما بعد. لا تخش شيئاً. وأنا أيضاً لم أعد أخشى أيَّ شيء. أنت تعلم أننا لا نواجه إلّا ما نريده لأنفسنا. ولا تضحك إذا كان الضحك يؤلمك. فسوف تجد متسعاً من الوقت فيما بعد، لتضحك مني. سيكون لك، والفضل لله، الوقت بمتسعه لتضحك مني يا صديقي. ولكن قُل لي لماذا أشعر فجأةً بالغبطة، لقد تبدّل مزاجي السيء. أن لا يكون بمقدوري حتى أن ألمسك.

هيّا، علي أن أغادر الآن.

في السيّارة، كنتُ أغنّي «على غصن شجرةٍ كان الوقواق، سمسالا ديمبا مباسا لادو سالاديم». لن ينالوا منّا يا صديقي العجوز. أدرت المذياع، وغنّيتُ بأعلى صوت كلَّ الأغاني العصرية الرائجة، كنت أجتاز «جادة لينين» بسرعة كبيرة، وخطر لي فجأة أن أتناول الطعام في «غريلبار» وانعطفتُ بسرعة في اتجاه الموقف عند الناحية المقابلة من

الجادة. وفقط في تلك الأثناء التمعت في رأسي اشارة «الانعطاف ممنوع». ولكن لا أحسب أنّ شيئاً ما سيحـ. . .

بلى. صوت صفّارة. كان يقف هناك إذن شرطي مرور، وكان عليّ أن أتقيد بإشاراته بتهذيب، وأن أعطيه أوراقي بتحبّب وبوعي تام للعواقب. كان من الأفضل أن أعمد أنا نفسي إلى تسمية المخالفة فوراً، دون مراوغة، ولكنْ مرفقة ببعض الأسباب التي من شأنها أن تدفع الشرطي، في غمرة ما أبديته من ملاطفة، إلى تحويلها، بمبادرةٍ منه، إلى ظروف تخفيفية. فاستغنى عن الختم وفوّت الفرصة السانحة، عشرة ماركات، على الأكثر، وإذا قبل بأن يدخل في نقاش حول المسافة فخمسة فقط. فما كان بوسع العريف ب. أن يفعل إزاء مُخالفٍ يعترف له بصراحة بأنّه غالباً ما يمرّ من هنا ولا يجد مبرّراً لفعلته إلا «حالة من الشرود»، ويصادف، وهنا الأدهى، أنه امرأة؟ لم يكن بوسعه إلا أن يردّ لي أوراقي مضيفاً هذا التحذير الذي تلفّظ به في شبه مزاح: ولكن لا تعيدي الكرّة هنا! ـ وأن يحييني رافعاً يده إلى طرف الكسكيت وأن يتمنّى لي التوفيق فيما أسعى إليه.

لم يكن ممكناً أن تستمرّ الأمور على ذلك النحو.

لم تستمر على ذلك النحو. كان نُدُلُ ذلك المقهى بَغيضين والخدمة بطيئة، فغادرت دون أن أتناول الطعام. فقد كنت أعلم، بتجربتي الخاصة، أن الإحساس بالجوع لن يلبث أن يزول في غضون ساعة على الأكثر. كان المساءُ مُقبلاً. وعندما وصلتُ إلى إحدى تلك الشوارع المعتمة التي تصلح للهدم خلف ساحة «الكسندر بلاتس»، ركنتُ سيّارتي على عجل، ووقفت طويلاً أبحث بعينيَّ عن دار الثقافة في الاتجاه الخاطىء، وعندما اهتديت إليه أخيراً كانت مهلة النصف ساعة التي وعدت بها المشرفة الادارية قد انقضى بعضُها. لم أكن

مُشرقةً وإنما احتفظت بمسحةٍ من الحبور متبقّية وإذ شعرتُ ببعض الانفعال رحت أفسح لي طريقاً بين الجمهرة التي كانت تسد باب دار الثقافة، وكانت ابتسامتي تقنع جمهور الشبان الواقفين هناك بأن يُفسحوا لي في المجال، فكانوا يتنحّون جانباً ضاحكين هم أيضاً. وعلى الباب المغلق عُلّقت لافتة كتب عليها بخطّ عريض: **لا أماكن شاغرة**. وعلى جانبي الباب، لجهة اليسار واليمين وقف أحد السادة الشبّان. ماذا عساهم يقصدون. ليس بالإمكان القول إنّهم يعملون خفيةً. ولم يُصعِّب السيدان الأمر، فأشارا بتهذيب إلى من هم في الداخل بضرورة فتح الباب. وهذا ما تمّ بالفعل. كان في ردهة المدخل أربعُ أو خمسِ فتياتٍ وسيّدات ورجلان، وقفوا هناك لتحيّتي بتهذيب بالغ. إنّه فخّ! قلتُ في سرّي مدفوعة بميلي للمبالغة في كلّ شيء، بينما كنتُ أصافح الأيدي من حولي، في الهرجة السائدة، حتى أني كنتُ أشد على بعضها أكثر مما ينبغي. أمكنني أن أقرأ: **نادي التضامن الشعبي** على لوحة أُلصقت على باب لجهة اليمين، ثمّ قادتني فتاة شابة على عجل إلى الطبقة العليا حيث واجهتني لافتة كتب عليها: **نماء - رخاء - استقرار**، وقرأتُ مجدّداً بطريقة آلية: نماء، رخاء، استقرار. ولكنْ أين كنّا بالضبط. راودتني الرغبة في أن أدفع السؤال إلى أبعد من ذلك، سوى أنني كنتُ أرى أن الوقت غير ملائم.

كانت حجرة مكتب رئيس القسم المولج بإعداد البرنامج الثقافي، وهي أشبه بمستودع لأثاث مكاتب قديمة الطراز، تكاد تفوق بطابعها غير المضياف كلّ المكاتب الأخرى التي عرفتها. ولم تكن الملصقات الثلاثة المعلّقة على الحائط والتي تعود إلى زمن الطوفان لتعبّر عن المناخ الثقافي الذي كانت الزميلة ك. تودّ أن تبرزه من غير ريب. استقبلتني الزميلة ك. كأنّها لا تتمالك سعادتها لرؤيتي، أمّا من جهتي أنا فقد بدت

لي شديدة التوتّر. كانت ترتدي كنزة صوف خضراء وفوقها، تماماً بين الثديين، تتدلّى رصيعة من البرونز المطرق بحجم قبضة اليد. وسألت نفسي إذا كانت تلك المرأة تدعى برونهيلد، إلاّ أنّ معرفة اسمها ما كانت لتعني لي شيئاً بالفعل. ثمّ جعلت تتكلم بنبرةٍ متسارعة ومتعجّلة فتهز الرصيعة على صدرها وتحدث طقطقة. ما الذي كان يُصيبها. ورأيت، بدهشة متزايدة ثمّ بتفهّم متزايد، أصابعها تنتقل هنا وهناك على طاولة المكتب، ونظراتها تستغرق في أبعد زوايا الحجرة، وأدركت عندها: أنّ هذه المرأة خائفة. وكان خوفها يُقاس بطقطقة الحُلية على نحرها. كانت تحدث رنيناً خافتاً حين تتحدّث المرأة عن رئيسها. فهو لم يدرك بالطبع ضرورة أن يوفّر لها التغطية المناسبة في مواجهة «المراتب العليا» التي كان ذكرها يُضاعف من اهتزاز الحلية. مِمّا أفضىٰ في آخر الأمر إلى صدور تعليمات من قبل تلك المراتب، التي لم توفر اللوم والتأنيب، تُفصح عن موقفها المتسامح بتحفّظ من إجراء هذه القراءة العامّة، لأنّ الغاءها لم يُعد ممكناً. ولكنّ رصيعة البرونز على نحر السيّدة ك. كانت تعاود رنينها العصبيّ كناقوس الخطر عندما كانت هذه الأخيرة تأتي على ذكر كلّ أولئك الأشخاص الذين ينتظرون في الخارج، ولا يجدون أماكن شاغرة في الداخل. لم يكن ينقصنا حقّاً إلاّ مثل هذا الحشد، قالت الزميلة ك.

أنا أيضاً كنتُ أفكّر: لم يكن ينقصني إلاّ مثل هذه القضية، ولكنّي امتنعت عن الجهر بأفكاري. بل على العكس. استجمعت كلّ ما لديّ من تجارب على هذا الصعيد، وهي تجارب لا يُستهان بها، ورحت أطرح على السيّدة ك. عدداً من الأسئلة التي كان من شأنها، بالإضافة إلى تدعيم موقفها هي، أن أحظى منها بأكبر قدر ممكن من المعلومات. ثمة أسلوب لن أتمكّن من شرحه لَمْن لا يُعنى بهذه الأمور.

وأحسب أنّ ثمة أحاديث، وفي كافة البلدان، لا يتضح معناها المُضمر إلا حين تُقارن بعشراتٍ من الأحاديث الأخرى المماثلة والتي تدور حول الموضوعة نفسها.

ما هي إذن طبيعة المشكلة مع المراتب العليا ـ أكانت هذه الأخيرة تخشى مما لا تُحمَد عقباه. ـ ماذا، على سبيل المثال. ـ أسئلة ذات طابع استفزازي يطرحها الجمهور مثلاً. ـ آه! آه! يبدو أنَّ حدَّ التسامح حيال الأسئلة النقدية قد انخفض مجدّداً ولكن لا تقلقي بهذا الشأن يا سيّدة ك. ، فأنا أعرف جيّداً كيف أواجه هذه الأمور. ففي آخر الأمر، أنا لست مبتدئة على هذا الصعيد.

لم أكن مجرّد مبتدئة؟ بصراحة، كنتُ أشعر، ذلك اليوم بالذات، أنني مبتدئة.

وماذا بعدُ، يا سيّدة ك. ـ المراسلون الأجانب ـ أيّ مراسلين أجانب ـ فمن يستطيع أن يتسلّل إلى هذا المكان برغم. . . ـ برغم ماذا؟ أليست أمسية عامّة، نعم أم لا؟ ـ بالطبع، وإن كانت. . .

باختصار، لقد أتّخذت بعض التدابير. ـ تدابير؟

جرسٌ ما، غنيٌ عن التعريف، بدأ عندها يقرع ناقوس الخطر في داخلي. ورحتُ أفاوض الزميلة ك. واستطاعَت مفاوضاتي التي أجريتها، من جهتي، بعناد ولطف دون أن أحيد عن خط المناورة السليم، أن تتغلّب على مقاومة رئيسة القسم التي جاءت حديثاً من مسقط رأسها في «تورنغ» إلى جُحر أفاعي العاصمة. وبعد مناورات كثيرة واهتزازات عنيفة للرصيعة على صدرها سلّمتني رئيسة القسم، بحركةٍ أشبه باستسلام قائد المئة، لائحة بالمدعوين المشاركين في الأمسية. وبالفعل أفعمتني تلك اللائحة بمشاعر الاعتزاز. إذ لم يُغفل

ذكر أحدٍ فيها.

قلت للسيّدة ك. إنّ هذه اللائحة تشعرني بالاعتزاز. ولكن ماذا تعني الأرقام الستة المتسلسلة والتي لا يرد بعدها أي ذكر لأقسامٍ أو لأسماءٍ. هنا، لزمت السيّدة ك. صمتها وأطرقت محدّقةً بمكتبها. وسكتُّ أنا أيضاً وحدّقت بنظراتٍ ثابتة بمكتبها. فقط ستة أشخاص، فكّرت بشيءٍ من الاطمئنان. فعندما تحضرني تلك الأمسيات العامّة حيث يكون ربع الجمهور. . . ولكن، الأجدر ألّا يجري الكلام على «تقدّم» ما في بعض الميادين. والمهمّ الآن أن لا أفقد شيئاً من حسّ الدعابة لديّ.

وهكذا سألت السيّدة ك. عمّا إذا كان لا يزال ممكناً، بعد اطلاعي على هذه اللائحة الموقّرة، أن أتوقّع الحوار مع جمهور عادي. ولكنّ كلامي هذا كاد يثير لديها إحساساً بالمهانة. طبعاً، كانت السيّدة ك. قد سمحت «لأناس» عاديين» بالدخول. وكادت تلك الكلمات التي استخدمتها أن تُعيد إليّ كلّ ما أمتلكه من حسّ الدعابة. فعلى الأقلّ، من شأن كلّ هذا أن يخلف لنا ذكرياتٍ ممتعة لأيام شيخوختنا.

غير أنّه كان على السيّدة ك. أن تهرع إلى المدخل لتدعو جمهرة الواقفين عند الباب إلى المغادرة. ـ ولكن ماذا لو سمحنا لبعضهم بالدخول بعد فتح الباب الموصل إلى بئر السلّم؟ ـ ليس بوسع السيّدة ك. إلّا أن ترفض هذا الطلب المخلّ بالأصول المرعية لأسبابٍ أمنية ـ. وإذ لبثتُ بمفردي، رحت أقلّب أوراق محاضرتي وأمسحُ العرق عن وجهي وأنعش نفسي بماء الكولونيا. أليست هذه المباني البرلينية القديمة ذات الهندسة المعقّدة مجهّزة جميعها بمخرج سرّي؟ ألا

يفضي هذا المخرج إلى ناحية المراحيض حيث أقدر أن أتسلّل خلسةً؟ وخلسةً أتظاهر بأنني أخطأت بين باب المراحيض وبوّابة المدخل؟ وأن تكون تلك هي المرّة الأولى ليس سبباً يدفعني للامتناع عمّا صمّمت عليه. فهناك دائماً بدايةً ما لكلّ شيء.

في تلك الأثناء عادت السيّدة ك. . هل وفّقت في تفريق الجمهرة أمام الباب؟ ـ للأسف لا. ـ وكانت السيّدة ك. التي لم تتمالك الرعشة التي هزّت أجزاء عديدة من جسمها منذ أن عرفتها، لا تتمالك الآن ارتجاف ذقنها. وأكدّت لي أنها مصمّمة، مهما حدث، على افتتاح الأمسية. لا بدّ أنّها واجهت ما لم تتوقعه، هناك، عند الباب. وبدت لي في روحاتها وغدواتها أمام عينيّ مصممة على مواجهة أسوأ الاحتمالات. وإذا كان الأخضر هو، بالفعل، لون الأمل، فإنّ كنزتها الخضراء كانت توحي بكافة المعاني إلّا الأمل. وعند باب قاعة الاحتفالات اتضح لي أنّها لا ترغب في تقديمي للجمهور. فقد كان علي أن أصعد إلى المنصّة بمفردي وأبدأ القراءة بلا مقدّمات. ولن يلبث الحاضرون أن يدركوا من تلقائهم موضوع المحاضرة ما أن أبدأ بالقراءة، قالت السيّدة ك. حسناً يا صديقي العجوز! فكّرتُ. لم أجبه في حياتي مثل هذا الموقف من قبل.

داخل القاعة كان الهدوء سائداً. سلكتُ الممرّ الضيق بين صفيّ المقاعد، سائرة في اتجاه المنصّة التي وضعت عليها طاولة خشبيّة بلا مفرش وكرسي ومصباح كهربائي. ارتقيتُ المرقاة العالية، وجلستُ. صفّق اثنان أو ثلاثة من الحضور. إذن ليست هذه الأكفّ المصفّقة للأشخاص الستّة الذين حملت اللائحة أرقامهم؟ أم أنهم هم الدين صفّقوا بالذات؟ قلتُ ما كنتُ عازمةً على قوله وبدأت.

كنتُ أحفظ النصّ غيباً. وكانت العبارات ترتفع نبرتها من تلقائها، والصوتُ يعلو وينخفض ويرقّ أو يقسو. تماماً كما ينبغي أن يكون. وكلّ هذا كان يتمّ بعفوية لن يلحظها أحد. فمهما كانت الأسباب التي حدت بكم للمجيء، أيها السيّدات والسادة، فستجدون ما جئتم لأجله. إنّ المكافأة الماديّة التي تمنّون بها عليّ متواضعة جداً، غير أني سأبادلكم العِوَضَ كاملاً. فما أودّ أن أعرفه بصدق: هل أتيتم على نفقتكم الخاصة أم أنّ الأجهزة التي تنتمون إليها هي التي دفعت ماركاً ونصف المارك ثمناً لكل تذكرة دخول؟ وهل يتوجب عليكم، في الأقلّ، أن تتظاهروا بهذه الحمية الأدبية لإنجاز عملكم(*)، أم أنّ هذا ليس ممّا يتوجب عليكم؟ ثمَّ ما هي التعليمات التي أعطيتموها؟ التصفيق في الختام؟ وإذا كان هذا الأمر صحيحاً، فإلى أي حدّ؟ أم طُلِبَ إليكم إبداء امتعاضكم؟ ولكن بأيّ مناسبة؟ إذ ينبغي القول إنّ سلوك القبضات المشدودة أصبح الآن في غير أوانه.

ن م ا ء ر خ ا ء ا س ت ق ر ا ر

أوه! بلى. سأسعفكم بما جئتم لأجله، يا أيّها الزملاء. ثمّ: لماذا أنتم بالذات؟ ولماذا بالذات ذلك الشاب، هناك في المقدّمة لجهة اليسار الذي يتصبّب جبينه عرقاً ويمتنع عن مسحه؟ ألا يجرؤ خشية أن يلفت الانتباه؟ وهل هو مهتمّ فعلاً بما يقالُ كما يُبدي في جلسته؟ وتلك الفتاة، خَلْفه، ذات الشعر الطويل - في أي مؤسسة تراها تعمل. إلاّ إذا كان ذانك الاثنان بالذات ليسا من بين أولئك الذين أوفدوا بمهمّة رسميّة، بل ينتميان إلى جمهرة «الأناس العاديين»؟ أولئك الذين كان ينبغي أن أقرأ شيئاً مختلفاً بحضورهم؟ لماذا أقول:

(*) بالإنكليزيّة في النصّ.

«كان ينبغي»؟ بل ينبغي. حتّى لو لم يكن في القاعة سواهما. ولكن من الممكن أيضاً أن يكونوا عشرين أو ثلاثين، أولئك الذين أغفلتُ وجودهم. ولماذا لم يخطر لي من قبل أنَّ حتّى أولئك الآخرين، الموفدين بمهمّة رسمية، يستحقون عناء قراءة شيء مختلف؟ إذ مَنْ قال إنهم كائنات فولاذيّة، وإنّه يستحيل استمالتهم هم أيضاً.

حسنٌ. سأبذل الآن بعض الجهد.

لن أحسب الآن حسابَ انقسام الجمهور مهما كانت مظاهر هذا الانقسام. ومهما تنوّعت صورة انعكاس العالم في أكثر من مئة رأس مختلف ـ فقد كنتُ أودّ، في غضون ساعةٍ من الزمن، أن أغرس عالمي أنا في رؤوسهم. فقد زال من ذهني كلّ اعتراضٍ، وكلّ تحفظ، حتى أقلّه، حيال أيٍّ من المستمعين، وحتّى ـ وما كنتُ لأقسم على ذلك بالطبع، غير أني كنتُ أودّ فعلاً أن أصدّق نفسي ـ أولئك الستّة، أو الجميع، مهما كانت أغراضهم، لعلّهم ينسون، ولو لبضع ثوانٍ، ليس مهمتهم التي أوفدوا لأجلها بل، في الأقلّ، قناعاتهم المُسبَقة. ذلك أنّ بئس ما نصير إليه حين يصبح التقليد الشائع أن يبصق واحدنا في اليدِ التي تمتدّ لمصافحته.

لقد لاحظت كم كانت الزميلة ك. تودّ انتهاز فترة الاستراحة القصيرة التي أعقبت مداخلتي الأولى لإنهاء تلك الأمسية. بعد أن بذلت ما بوسعها للتهرّب من افتتاحها. كانت الأمور لا تزال تجري على خير ما يرام، ولكن قد يطرأ المحذور في أي لحظة، مثلاً في تلك اللحظة، عندما نهض الشاب الجالس في الصفّ الأوّل، ذاك الذي كان يتصبّبُ عرقاً. ولكنّ الفتى إنما أراد أن يسأل عن موعد صدور الكتاب، وما كان لأحدٍ من الستّة أن يفتتح النقاش ببراعةٍ أكبر، لأنَّ

الوقت سينقضي، بهذه الطريقة، في غمرة انهماكي بشرح المشكلات العملية التي تواجه صناعة الكتب. «كان الجوّ السائد موضوعياً»، أو هذا ما ستنقله التقارير، منذ صباح الغد على ما نأمل، التي ستصل إلى الجهاز المعنيّ من جهاتٍ مختلفة. لقد جرى النقاش في جوّ من الموضوعية.

ولكن ينبغي ألّا تستغرقنا البهجة قبل أوانها. وينبغي ألّا تغفل الحيطةُ إذ يسود منطق الأحاسيس. من الصفّ الأخير نهضت امرأة شابة، من النوع الذي أعجز عن مقاومته، وأوردت في كلامها عبارة «مستقبل» ـ وهي العبارة التي نعجز جميعاً عن مقاومة اغوائها، والتي من شأنها أن تبدّل الأجواء السائدة في أيّ قاعة وتثير الحماسة في أيّ تجمّع. لم تكن المرأة الشابة ـ مدرّسة؟ طالبة في معهد الموسيقى؟ اخصّائية في الرسم الصناعي؟ ـ لتجرؤ أبداً على الكلام في مكان عام لو أنّها لم تأتِ خصّيصاً لطرح هذا السؤال الذي، في رأيها، لا يمكنُ إرجاؤه: كيف السبيل لأن يولد من هذا الحاضر مُستقبلٌ نحتمل العيش فيه، نحن وأولادنا.

كانت تتكلّم بعفوية، ولا تجعل من نفسها حَكَماً ولا تتهم أحداً، ولا تدع في كلامها أيّ موضعٍ لسوءِ فهم. إنّما تريدُ أن تعرف. كلُّ مَنْ في القاعة تلقّى رسالتها، وكلٌّ على طريقته. وراحت الحلية البرونزية على نحر الزميلة ك. تصطكّ كما لم تفعل من قبل، ولكن ما الجدوى الآن. وحتّى لو بدت تلك الكلمات ن م ا ء ر خ ا ء ا س ت ق ر ا ر واضحةً بالأحرف العريضة المضاءة على الجدار ـ فما الجدوى من ذلك أيضاً، فقد طُرحت الأسئلة الحقيقية، تلك التي تحثنا على الحياة، وتلك التي، إنْ تخلينا عنها، تحثنا على الموت.

تفوهّت بكلامٍ من هذا القبيل، وبذلتُ ما بوسعي، على جاري عادتي، لتوفير الغطاء اللازم للمدرّسة الشابة التي ربّما وجدت نفسها قليلة الحرص في وسط حريصين، ولتحمّل مسؤولية الذريعة التي دفعتها إلى السؤال. ولم ألبث أن أحسست بالخجل لما كنتُ أبذله في مناورتي، ذلك أن بعض الأيدي امتدت في وسط القاعة، وعَلَت أصواتٌ لا تكتفي بتبنيها سؤال المرأة الشابة بل تُضيف إليه وتكمله وتنحاز إلى منطقه من غير حذر أو مواربة. ما الذي كان يفعلُه أولئك الناس. كانوا يعرّضون أنفسهم للمخاطر. ولكن بأيّ حقّ كنتُ أنظر إليهم على أنّهم أكثر غباء مني؟ وبأيّ حق أتنطّح لحمايتهم من أنفسهم؟

عندها سكتُّ وأصغيتُ كما لم أفعل غالباً في حياتي من قبل. سهوتُ عن نفسي، وسُهيَ عني، وفي آخر الأمر نسينا جميعنا الزمان والمكان. كانت الصالة شبه معتمة، ومع الأشكال لم تلبث أن اختفت الشكليّات. اختفت إذن تلك العادة المرهقة في مخاطبة الآخرين، وكان كلٌّ منا يخاطبُ نفسه ويُصبحُ، بفعل ذلك، عرضةً للهجمات، وأحياناً كنتُ لا أتمالك رعدةً تنتابني: عرضة للهجمات، ولكنْ إلى أي حدّ. إلاّ أنّ المعجزة حلّت: لم يبادر أحدٌ إلى الهجوم. وانتابت الحمّى معظم الحاضرين، كأنّ امتناع أي منهم عن الإدلاء بدلوه ليس إلاّ خطيئةً لا تغتفر، لا سيّما وأنّ المناسبة المتاحة قد تكون الأخيرة لإبداء الرأي حول فكرة المستقبل تلك والتي بدت قريبة ولكنّها لا تني تتوارى عن الأبصار. قال أحدهم برقّة: «إخاء». غير معقول، قلتُ في سرّي. واحدٌ آخر قفز واقفاً ملوّحاً بقبضتيه وضرب على رأسه بجماع كفّيه حيال هذا القدر من السذاجة، وقال إنه لا يفهم جيّداً ما الذي يجري من حوله، وعندئذ عَلَتْ أصوات من كل صوب جاهدةً في أن تشرح له بروية المعنى المتداول لهذا الاصطلاح الطوباوي. فما لبث أن

عاد وجلس مكانه وهو يهزّ برأسه. كما جوبه متكلّم آخر، مولعٌ بسماع كلامه، بالعودة إلى صلب الموضوع. وكان كلّ هذا يتمّ في مناخٍ من البهجة العامّة. كما لو كنّا عشيّة عيدٍ ما، فقد كان المناخ السائد في القاعة يميل أكثر فأكثر إلى الاسترخاء. ذكرت من هنا وهناك عناوين كتبٍ كان البعضُ يدوّنها، فيما راح آخرون يتحدّثون إلى الجالسين بقربهم، وتشكّلت حلقةٌ حول المرأة الشابة التي افتتحت النقاش بسؤالها.

ولكنْ ما الذي كان يستحوذ على تفكير الزميلة ك. في تلك الأثناء. أكانت تجد نفسها في مستوى المسؤولية أم لا. بلى، كانت هناك بالفعل، وتصدر عنها قعقعةً خافتة، كأنّها صليل مهماز. كنزتها الخضراء أشدّ اخضراراً ووجنتاها أشدّ احمراراً. أكانت ترتعد؟ بالطبع، كانت ترتعد. وكان ارتعاد جسمها يتسرّب إلى صوتها برغم نبرته الواثقة. والآن، قالت، لقد آن الأوان. كلّ اجتماع له خاتمة ولذلك أعلن أنّ الأمسية قد انتهت، وأعتقد أنني أتحدّث باسم الجميع. وذيّلت كلامها بعبارات الشكر التقليديّة. ثمّ الورود: خمسة عروقٍ خضراء طويلة في باقة من الهليون الزنبقي.

إلّا أن الجميع لبثوا في أماكنهم. فهل أخطأت السيّدة ك.؟ ألم يحن الوقتُ بعد؟ ومن جهة ثانية: إذا كانوا ينتظرون المزيد، فما الذي ينتظرونه؟ لا أحد يعلم، ولكنْ حين نهض الرجل العجوز في الصفّ الثاني، وكان يُشبه أحد العريقين في قطاع المهن، بدا مَنْ في القاعة وكأنهم لا ينتظرون إلا مبادرته إلى مغادرة المقعد. وكان الرجلُ، بوصفه الأكبر سنّاً بين الحضور، يودّ أن يخاطبني ببعض عبارات التودّد اللطيفة. وعندما تفوّه بهذه العبارات تناول من حقيبته القديمة جداً علبةً مغلّفةً بورق الحرير وقدّمها إليّ. وأصبح بالإمكان الآن أن تنطلق

الضحكات ويدوّي التصفيق فيما يتفرّق الجمع شيئاً فشيئاً. بعضهم أحضر لي نسخاً من كتابي لأوقّعها، ومن بينهم كانت الإمرأة الشابة التي طرحت سؤالها حول مستقبلنا. ما هو عملها؟ ـ أفّ! ممرضة. ـ لماذا قالت «أفّ!» ـ أفّ! لا لسبب محدّد حقّاً، أجابت.

كان ينبغي أن تنتهي الأمسية عند ذلك الحدّ. ولكنْ بدلاً من الوصول إلى مسك الختام، شهدت فصلاً ختامياً آخر. وكانت بداية ذلك الفصل الختامي حين تقدّم شاب وفتاة من ناحية الباب لم يكونا أصلاً في عداد الجمهور. شاب مُسالم وفتاة جذّابة ذات شعر أشقر مُجعّد. وبينما كنتُ منهمكة بتوقيع نسختيهما عرّفني الشاب إلى اسمه. هكذا إذن، كان هو نفسُه الشاعر الشاب الذي ثابر طوال بضعة أشهر على وضع قصائده في صندوق بريدي الخاص دون أن أراه. إنّها مصادفة سارّة، قلتُ، أقصدُ أن نلتقي هنا أخيراً وعلى هذا النحو.

عندئذ سألني الشاب: أتعلمين أنّ رجال الشرطة هم الذين فرّقوا الحشد عند باب المدخل؟

كنتُ أعرف جيداً ذلك الإحساس الذي ينتابني عادةً كأنّ مصعداً يهبط في داخلي بسرعة هائلة. رجال الشرطة؟ ولكن لماذا؟ وهل يُفترض أن أكون على علم بهذا الأمر؟.. أيتها الزميلة ك.!

كانت الزميلة ك. على أهبة الاستعداد. أجل، للأسف الشديد. لقد اضطررنا، لأسفنا البالغ، أن نلجأ إلى حماية رجال الشرطة. فقد كان الحشد عند الباب يتحوّل إلى تجمّع لا يُخفي فظاظته أو عدوانيته، قالت.

قال الشابان، الفتى المسالم والفتاة الشقراء، بنبرة هادئة: لا، غير صحيح.

غير صحيح! على رُسُلكما، فالزميلة ك. مخوّلة أن تكون هي الأعلم في هذا الصدد. حتّى أنها تعرّضت للاهانة، هي نفسها، عندما حاولت تفريق التجمّع بالحسنى.

بالحسنى! قال الشاب والفتاة بصوتٍ واحد.

كنت إذن على علم تام بتدخل رجال الشرطة؟ سألتُ الزميلة ك.، وإذا كنتِ تعلمين فعلاً فهذا يعني أنَّكِ بادرت إلى طلب تدخلهم؟

لقد تمّ كلّ شيء حسب القواعد المرعية الأصول، وله ما يبرّره، أجابت. والحقيقة أنها تلقّت اتصالاً من مفوضية الشرطة قبل انعقاد الأمسيّة، لإخطارها بأنّ هناك عربة جاهزة للتدخّل عند الحاجة.

متى! متى اتّصلوا بها من المفوضيّة.

حوالي الساعة السادسة والنصف. قبل المحاضرة بالطبع. إلاّ أنّ ما حدث كان متوقّعاً منذ البداية.

ولكنْ ماذا؟ ما الذي حدث إذن؟ سألنا معاً، الفتى والفتاة وأنا أيضاً.

عندها فقط ظهر إلى جانب الزميلة ك.، المصطكّة والمرتعدة من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها، رجلٌ كأنّه انبثق من أرض القاعة، ليس أطول قامة منها ولكنّه، من غير ريب، أرفع مرتبة بدرجةٍ أو اثنتين: إنّه مدير النادي بشخصه، رئيسه. وها إنه أصبح الآن مُجبَراً على تقديم نفسه. فقط لكي يُظهر لهذين الشابين أنّ... إذن، لنتكلّم بدقةٍ ووضوح: ما الذي حدث؟ الحقيقة، قال، إنني، فيما مضى، كنتُ بدأتُ بدراسة الحقوق. ولكنْ حتّى لو لو أفعل: فإنَّ أيّ كائن يتمتع بكامل صحته البدنية والعقلية بإمكانه أن يعرف أن ما حدث على الأثر له اسم: انتهاك حُرمة مسكن. ولجبهِ مثل هذه

الأعمال، يسرّنا، بالمناسبة، وإن كان هذا لا يستسيغه البعضُ، أن يكون لدينا جهاز شرطة فعّال. هذا فقط لإيضاح بعض الأمور. وفي آخر الأمر، لم تستخدم الشرطة أي أساليب عنيفة برغم ما تمتلكه من حقّ في استخدامها في مواقف مماثلة.

لقد قال لي أحدهم، أردفت الفتاة، إنهم يستطيعون اعتقالنا ونقلنا جميعاً على دفعتين في ثلاث أو أربع شاحنات وينتهي الأمر.

قالَ! أجاب مدير النادي بلهجةٍ متعالية. ولكنْ ما الذي فعله رجال الشرطة!

لقد طردوا الناس الواقفين عند المدخل، وعاملوهم بخشونة.

أترين، أنتِ نفسُك تقولينها. لقد أعادت الشرطة القانون إلى هذه الدار دون إراقة دماء. أوتعلم الزميلة الكاتبة أنّ هؤلاء المُعجَبين قد دخلوا الدار عنوةً.

عنوة! قال الشاب. كان الواقفون في الخارج يشعرون بالملل، فيتبادلون كافة أنواع التفاهات لتمضية الوقت. ثمّ صرخ أحدهم وهو الأقرب إلى الباب: تلزمنا عقفاء مِرْتاج، فتناقلت الأيدي إحداها وأُعطيت له ففتح الباب، واستطاع البعض أن يدخل. هذا ما حدث بالفعل. ولم يلجأ أحد لأدنى مظاهر العنف، بل بدا الأمر مُسلياً كأنّه تمثيل مُرتجل. ولا يذهب بك الظنّ إلى أنَّ أحداً منهم كان يريد أن يعكرّ عليك أمسيتك.

ليس مهماً ما كنتُ أظنّ. وأدركتُ عندها أنّ الزميلة ك. كانت تعلمُ مسبقاً بتدخل الشرطة، ولكنها كانت تجهل محاولة الدخول عنوة إلى الدار، ورأيت أنّها شعرت بالارتياح فجأة. وتساءلت في سرّي

أيضاً عن ردود فعل الشابين اللذين كانا واقفين إلى جهتي الباب عندما تناقلت الأيدي عقفاء المرتاج. ألم تصل أخيراً إلى يديهما؟ كان ثمّة ما يثير الريبة في تفاصيل تلك الحكاية ولم أتمالك نفسي عن التفكير فيها مطوّلاً. ذلك الاتصال الهاتفي عند السادسة والنصف، قبل أن تخطر حكاية المفتاح العمومي في بال أحد... إلّا إذا؟ لقد تسرّعت في إبداء غبطتي. يورغن م.، أو لا أدري مَنْ سواه، سيحظى بتقريره، بل ربّما، من غير ريب، بتقاريره الدسمة الثلاثة أو الأربعة التي من شأنها أن توفّر له القدر الأكبر من الرضى وأن تغني اضبارتي الخاصة بوثائق جديدة. أَفَلا يُعقل أن يكون صاحبي القديم يورغن م.، الذي طالما أوعز إلى فتيانه بالانتظار، عبثاً، لأيام طويلة أمام بابنا، قد أراد أخيراً أن يلجأ إلى مثل هذا الاجراء لتضخيم اضبارتي. بلى، معقول، ولكن لا يُقال. لا يُقالُ. ويتعذّر التعبير عنه.

حسناً، هيّا بنا.

لحظة أخرى. كان مدير النادي يودّ انتهاز الفرصة، في الختام، للتعبير عن خلاصة ما رآه بأنّ الأمسية كانت بصورة عامّة ناجحة جداً، وأنّ تلك الحادثة المؤسفة التي جرت على هامش اللقاء ليست بأيّ حال موجهة ضدّ الزميلة الكاتبة. والأفضل أن تُطوى صفحة تلك الحادثة كأنّها لم تكن. وكان هذا أيضاً رأي الزميلة ك.، ذات الرصيعة المصطكّة والذقن المرتجف. وفيما كانت أنظارها مشدودة إلى رئيسها، صاغت على مَسمعنا العبارة التي ستضمنها تقريرها: لقد جرت الأمسية على خير ما يرام، وسادها جوّ من الانفتاح والصراحة ممّا أثار ارتياحاً عامّاً في أوساط الحاضرين.

بالضبط، قال رئيسها.

غادرتُ المكان برفقةِ الشاب والفتاة. ولَحِق بي أحدهم وأعطاني

باقة الورود التي كنتُ نسيتها على الطاولة. رافقني الشاب والفتاة إلى السيّارة. من الأفضل أن تفعلي، قال الشاب. لم نتحدّث مطوّلاً. فالذين كانوا يقفون في الخارج لم يلجأوا إلى العنف، حقاً، لم يفعلوا، لم يفعلوا، ولم يلجأوا إلى استفزاز أحد، قال. كانوا يتحدّثون فيما بينهم. فهما مثلاً، الشاب والفتاة، ـ قد تعرّفا أحدهما إلى الآخر هناك حيث التقيا لأوّل مرة.

حسناً، قلت.

لاحظ أنني لا بدّ أن أكون مُتعبة الآن.

أجل.

والنقاش، هل كان جيّداً.

أوه، أجل. كان النقاش يدور حول قضيّة المستقبل، كما تعلم. ما يبقى.

ما يبقى.

فلم أتمالك عن الضحك. وكنتُ أعرف جيّداً أن استرسالي في الضحك لا يخلو من خطورة. فتمالكت نفسي. ولاحظ الشاب والفتاة أن طريقهما لا تختلف عن طريقي. إلى اللقاء، قلتُ، وصعدتُ إلى السيّارة وغادرت. لم يكن في ذهني سوى أمر واحد، وهو أنني مُرهقة.

وماذا لو أنّهم اعتقلوا فعلاً بعض أولئك الشبّان ونقلوهم في شاحناتهم. وماذا لو. . . ، هكذا، إذن، لقد وصلنا إلى هذا الحدّ. وكنتُ قد أصبحتْ عاجزة عن فعل أي شيء. ما يُسمّى «الحشر في الزاوية». ظهرك إلى الحائط.

كانت الشوارع مقفرة في تلك الساعة، فلا أثر للسيّارات لا في

أورانينـبرغـرشتراس، ولا في توشولسكيشتراس. وكنتُ أقودُ سيّارتي بعفويّة، فركنتها في الصفّ الأول عند مدخل الموقف الواسع، تحت واجهة بيتنا بالضبط، وقرب السيّارة التي يجلس في داخلها شابان يقتلان الوقت بالتدخين. لا بدّ أنّ لون سيّارتهما يبدو أزرق في وضح النهار. أزرق قاتماً، في وضح النهار أو خلال الليل أيضاً، صيفاً شتاءً.

كانت الساعة الحادية عشرة وخمس دقائق ليلاً.

وكانت الشقّة معتمةً وساكنة. جلتُ، حافية القدمين، في أرجاء الحجرات جميعها وأضأت كلَّ المصابيح. وفي المطبخ وضعت باقة الورود في الماء. وعلى الشاشة المضاءة حدّقْت في وجه المذيع الذي كان يتمنى لنا ليلة سعيدة قبل أن يختفي. قلّبتُ عدداً من الاسطوانات. فرحان مبتهجٌ. تراني ماذا أفعل بها. ماذا أصنع بهذه الأغنية الشعبية التي أحببتها حتى الألم: «غريباً قَدِمتُ». وغريبةً أرحل من جديد.

لا شيء يُلائم مزاجي.

تمهّلت أمام رفوف الكتب، بل وقفتُ على المرقاة لاستكشاف الرفوف العليا، ومرّرتُ إصبعي على غلاف كتاب من هنا، وتفحّصت عنواناً من هناك. انتهى كلّ شيء. لقد هجرتني جميع الأرواح الصالحة، حتى أكثرها قداسة. وربّما كان لا يزال هناك حفنة سطور. برفقةِ الوقت قاتلي... سيّان. برفقة الوقت قاتلي، أنا وحيدة.

أذهب إلى الحمّام، أتفرّس في وجهي في المرآة التي لا أستطيع أن أحطمها لأنّهم حطموها من قبل. كانت الطريق مرسومةً بدقّة.

الرواقُ المحصّن الذي سنُطاردُ فيه. عدتُ إلى حجرتي. أدرتُ المذياع. فتحت علبة الشوكولا التي أهداني إيّاها الرجلُ ذو الشعر الأبيض. قرأت البطاقة التي أرفقت بها. هكذا إذن، إن الـرجل كاهن ويطلب من الله أن يُباركني. مكثتُ جالسةً هناك، أسمع موسيقى صاخبةٍ يبثها المذياع، ألحاناً عصرية رائجة، بينها ألتهم قطع الشوكولا واحدةً تلو الأخرى حتى أتيت على نصف ما في العلبة.

والآن.

رنّ جرس الهاتف. منتصف الليل. علمت ابنتي البكر بما حدث بواسطة أحد أصدقائها. كان من الذين مكثوا في الخارج. لا، لم يلجأوا إلى أي استفزاز، أصرّت على القول. كانوا هادئين ومبتهجين، ولا يريدون أن يتسبّبوا لك بأي سوء. ـ أعلم جيّداً. ـ لكنَّ صوتك غريب. ـ صوت طبيْعي على ما أعتقد. ـ في بعض الأحيان، قالت إبنتي البكر ذات الفكر الثاقب، ينبغي أن يقدر واحدنا على جرّ نفسه من شعره لينتقل ، عبر الزمن، لبضع سنوات إلى الأمام. ـ آه! إذن، تلك هي وصفة علاجك. ولماذا ليست في سريرها حتى تلك الساعة المتأخرة حيث ينام الجميع فيما هي توزّع اتصالاتها الهاتفية في كل صوبٍ وناحية. ـ أنت لا تتوقعين إجابةً على سؤالك، أجابت. هل يشعرُ والـدي ببعض التحسّن. ـ أجل. ـ حسناً. إذن، كما ترين! ليس بإمكان المرء أن يحصل على كلّ شيء. ـ هل عادوا مجدّداً لمراقبة المنزل؟ ـ أجل، إنهم هنا. ـ أما زال الأمر يزعجك؟ ـ لا. لم يعد يزعجني على الاطلاق. ما يزعجني هو أن تعمد بَنَاتي أنا، إلى «التجسس علي». ـ حسناً، إذن، إلى اللقاء، قالت ابنتي. ما أودّ أن أقوله أيضاً هو أنهم محقّـون في عدم الوثوق بك. ـ لقد بدأت أدرك ذلك للتوّ، أجبتها.

ما أن وضعت السماعة حتّى علا رنين الهاتف من جديد. رَجُل لا تربطني به سوى معرفة سطحية كان يريد أن يخبرني بأنّه كان يقف خلال الأمسية مع الآخرين عند مدخل دار الثقافة. وبأنهم لم يلجأوا إلى الاستفزاز بالفعل. ـ أعلم ذلك، قلت. ـ وكيف حالك الآن. ـ بخير، قلت. ـ بجدّ؟ ـ أشعر بأنني أفضل مما كنت عليه، قلت. ـ سأعطيك رقم هاتف تذكّرته الآن، فَمَنْ يدري في حال. . ، قال الرجل. وبإمكانك أن تتصلي بي في أيّ وقت، حتّى في ساعات الليل. ـ ولكنْ بحق السماء، أهي «نجدة الصداقة»، قلت. ـ بإمكانك أن تسخري مني، قال الرجل، ولكني ما زلت أفضّل هذا على أشياء أخرى.

دوّنت الرقم. جلتُ في الحجرات جميعها وأطفأت المصابيح كلّها باستثناء لمبة المكتب. لقد كادوا هذه المرّة أن يُفلحوا في النيل منّي. هذه المرّة، وسواء تعمّدوا ذلك أم لا، كادوا أن ينالوا من نقطة ضعفي. تلك التي سأسمّيها ذات يوم بلغتي الجديدة. ذات يوم، قلتُ في سرّي، سأتمكن من الكلام على سجيّتي بلا قيود. أما الآن فما زال الوقتُ مبكراً، ولكن ألا يكون الوقت مبكراً في أي وقت. ألا ينبغي أن أجلس ببساطة وراء هذه الطاولة، تحت هذه اللمبة، أرتّب أوراقي، أمسك بقلمي وأبدأ. ما يبقى. ما هو أساس مدينتي وما به يُصيبها الهلاك. أَنْ لا شقاء سوى شقاء أن لا تحيا. وفي آخر الأمر أنّ لا يأس أعمق من يأسِك لأنّك لم تعِش.

حزيران/ يونيو/ ـ تموز / يوليو ١٩٧٩

تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٩

كريستا فولف (١٩٢٩ -   )، كاتبة من ألمانيا الشرقيّة، تُعتبر اليوم، إلى جانب كريستوف هاين وستيفان هايم وغونتر غراس، أحد أبرز الوجوه الأدبيّة للغة الالمانية وثقافتها لفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

لها عدد من الاعمال الروائية والقصصية لم يُنقل أيٌّ منها، فيما نعلم، إلى العربية. ومن بينها نذكر: «السماء المقسَّمة» (١٩٦٤)، «كريستات. ت» (١٩٧٢)، «نسيج طفولة» (١٩٨٧)، «لا جهة لا مكان» (١٩٨٥)، «كاساندرا» (١٩٨٥)، «حادثة طفيفة، قصص يوم واحد» (١٩٨٩)، «ثلاث قصص غير معقولة» (١٩٨٧)، وأخيراً «ما يبقى» (١٩٩٠) و«مشاهد صيفية» (١٩٩٠).

* * *

«ما يبقى»، كتاب أرادته كريستا فولف أقرب إلى اليوميّات الحميمة التي تروي أحداث يومٍ واحد من حياة الكاتبة على أثر اكتشافها بأنّ عناصر الشرطة السياسية تراقبها. يوم واحد من التداعيات والوساوس والأحاديث والاحساس العميق المكشوف، المعرّض في كل ثانية لأعين الآخرين ونظراتهم الكابية. وتحاول كريستا فولف في كتابها هذا أن تروي انهيار الوهم، والدمار العقلي الذي يخلّفه في أعماق الذات.

كتبت كريستا فولف «ما يبقى» في صيف عام ١٩٧٩، ولكنّها تمتنع عن نشره آنذاك، ولن يصدر إلا عام ١٩٩٠ (لطبعتيه الألمانية والفرنسية) بعد عامٍ واحد على سقوط جدار برلين وقبل أسابيع قليلة من إعلان إعادة توحيد الألمانيتين.